01

جار النبي الحلو

حجرة فوق سطح

رواية

المجلس الأعلى للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

جار النبى الحلو

حجرة فوق السطح

رواية



٢٠٠٠

- ١ -

لماذا تفجرت عمتى شظايا رغم موتها من زمان ؟

- ردموا النهر . . ودُفن السمك تحت التراب .
لكن ما بالنا لا نشم الرائحة .

تشبثت يداى بحافة الشرفة ، ورجف القلب .

إياك أن تفلتى يالحظة الغروب منى ، وإياك أيتها الحجرة أن تهربى ، وضعتُ المدينة بلونها الكالح ودخانها وثقلها خلف ظهرى ، وافتقدتك أيتها الشمس بكل دفئك الغدار - حكى لى عطيه أن الشمس كانت السلاح الأخطر ضد أبدانهم فى الصحراء البعيدة هناك - أنا فى انتظارهم ، أو فى انتظار « توحة » التى تأتى من حيث لا أدرى ، من العينين البنيتين تتشكل ابتسامتها . شجرة العنب الممتدة والطالعة لى - من جوار جذور شجرة النبق وكلب يتمسح فيها ويقفز ليطل على أمى فى حجرتها - ما تزال ناشفة فى انتظار موسمها لتقدم لى عنبها الحلو المشترك لكل أصحاب هذه الحجرة التى فوق السطح .

أشعر بالبرد وليس سوى الانتظار ، تراجعتُ خطوتين من الشرفة ، فأصبحت فى الحجرة . أعرف أننى ممرور وأن السماء الوحيدة فى الغروب مثلى تموت الآن فى الظلمة .

أنقذنى أيها الرجل الذى على رأسه كاب تتباهى فيه نجمة لامعة وفى عينيه استشهاد . جيفارا نجمة حطت فوق جبل شاحب . فكرت بأن علىّ أن أرتدى ملابسى وانزل فورا ، أمشى فى شوارع المحلة أدور وأدور لعلنى

أعثر عليهم وأحدهم يغنى أغنية غامضة فيضحك أحد المارة ويمضى دون أن يبدى رأيـة . شممت رائحـة التبغ تفـوح من الإطار . . . هل كان يـخفى السيجار عن عين الكاميرا ؟ رميت نفسى على السرير فى تلك الحجرة فوق السطح ، النافذة الزجاجية ما زالت مطلية باللون الأزرق ، مئات السنين لم يبرحـها اللون الأزرق إلا فى مـخيلتنا حـتى لو نظفناها ولمعناها كل عـشر سنوات ، ابتـسمتُ ، وهل يمكننا أن نختـفى خلف لـون زجاج ؟ الجمـيع أعلن حـالة التأهب نحـن وأمريكا واسـرائيل ونحن الذين قـررنا أن نتلقى الضـربة الأولى والأخـيرة . كنت هنا بذات المـكان على الكنبـة المواجهـة للسرير وأمامى ترابيزة صغيرة وصاحبى محمد ومعادلة فى الكيمياء استعدادا لامتـحان الثانوية العـامة ، لكن أبى دخل علينا محطمـا كل ذرات المعادلة حين سأل كيف نذاكـر والحرب قامت ! ما أدهش هذه اللوحة . . سـباحة الحصان الأحمـر . . حصان أحمر وولد عـريان ، كيف تسنى له أن يسيطر على الحصـان والبحر ؟ حين دُق على البـاب الخشبى فـارقت عيناى الولد العريان ، وهلّت علىّ حاملة صـينية وكوب شاى ، أبتسـمت أختى إفراج بملامحها العجـوز الطفلة ، وأكدت إنها دون أن تطلع إلى السطح ولما رأت حجـرتى منورة عَـرفتْ أنى صحـوت من نومى وصنعت لى كوب الـشاى بالسكر الخفيف ، وضحكَتْ ، وهمت بالخروج لكنى طلبت منها أن تجلس فجلست ، تأملت جـسمهـا القزم النحيل الذى لا يحـمل أى ملمح أنثوى وهى الأكبر منى وكنت آخذها تحت ذراعى وهى السـباقة للكتّاب وأنا الذى تعلمت وصرت كبـيرا وعندى مكتبة . سألتنى فـجأة هل يمكن أن أصورها فى استوديو التصوير ؟ قلت لها : بالطبع . تمتمتْ بخجل :

نفسى . ووعدتها . . ولكن متى سيحدث هذا ؟

فتَـحتُ الباب للسطح الفـسيح ونزلت درجات السلـم . فى منتصف السلم سمعت صوت « عمر » وهو يشرح باللغة الفرنسية ، ونزلتُ ، كنت باتجاه الخـارج لكن صوت أبى نادى علىّ - فقد تعـرف على وقع قدمى -

التفتُ لـلصالة وبابها المـفتوح على السـلم ، دخلتُ للضجـيج : أخواتى وأولاد أخى الأكـبر وأبى وأمى . جـلستُ بجواره علـى كرسى «الانتـرية» وشاشة التليفـزيون تعرض سخفا باهتا . وحـسدتُ أبى أن كف نظره تماما بحيث استراح من سخف مبثوث .

يومها كانت الرؤية لم تفارقـه تماما ، وكان يسب من سلمنا مهزومين للعدو . تربص - يومها - بجوار التلفزيون ليسمع أى ادعاء سيبرر به هزيمة ثقـيلة ، عيناه بالـكاد تريان الرئيس فى لحظة أصـبحت تاريخـية ، وجـاء الصوت الساحر « قررت أن اتنحى تمامـا ونهائياً من أى منصب رسمى وأى دور سياسى وأن أعود إلى صفوف الجماهير » .

وتغير أبـى ، تبدل هجومه وسـبه إلى دهشة وحزن ، وضـرب جهاز التليفـزيون بيد مـرتعشة وبقـوة . كيف ؟ . برقت عـينا « فريد » بشـعاع أذهلنى كأنه يموت أو حالاً يبدأ الحياة .

كـانت المحلة تموت فى سـواد التـاسع من يونيـو من العـام السـابع والستين ، فاقتحمنا موتهـا الكئيب وكنا نجرى باتجاه شارع البحرَ ، لانلوى على شئ ، وللغرابة فـإن الجميع أغلقـوا أجهزة التليفـزيون وبدأوا يجرون مثلنا ، كان الخوف الوحش أن نتوه بدون الملاح الساحـر الجميل من عشقته قـلوبنا بفـعل تأمـيم القناة واصرار بناء السـد العـالى والمصانع والتـعليم المجانى . لا أعـرف كيـف أصـبحنا بين جـمهـرة من البشـر ، ولا كيـف اتحدت القلوب ، لكن أعرف كيف بهتَ ، وبين شدة الزحام لطمت وجهى من وجوه شديدة النحـافة والحزن والضياع ، ووكسة أحـلامنا ، فجرينا بلا هدف كأنه مقصـود ، ارتفعت صور الزعيم . عضضت شـفتى حسرة على ابتسامته التى أحبها .

كان شامخا وهو يتنحى ، وقويا وهو يقول : « قلبى كله معكم وأريد أن تكون قلوبكم كلها معى » . وصلتنا دعوته ، كـنا ضعفاء ، وحدنا كنا مدركين أن الاسرائيلين الآن يسفلتون سيناء ويقيمون أحدث الفنادق ، وكان شبح العلم الأبيض ذى الخطين الزرقاوين يرفرف كالنار الخبيثـة فى عيوننا

الطيبة التى حلمت بوطن حر ، وجيش سيتناول غداءه فى تل أبيب بعد ساعات ! عطية ابن خالتى أكد لى وهو رجل من رجال الصاعقة أن أسرائيل اكذوبة وانهم سيتنزهون فى تل أبيب ، وعندما سألنى ماذا أحضر لك من هناك ؟ خفت وقلت : فقط . . حفنه تراب فلسطينى .

كنا نتشح بالأحلام وأجسادنا عريانه فى انتظار عيون يونيو الجارحة لتنتهكها .

« مكتوب على إيدينا . . . . عبد الناصر فى عنينا »

هذا ما ردده فريد ، لم يقله ونحن جالسون فى حجرة فوق السطح بعد أن هرش رأسه ثم وقف على الكنبه كعادته ليلقى غزله فى « كوثر » بل هتف وردده من فوق أكتاف الجماهير ، ورددت الجماهير هتافه بصراخ يشوبه الفزع ، صار فوق الجميع محمولاً منشدا تلقائياً شجاعاً وهبته نفسه لتلك اللحظة ، تحول الحالم إلى ثائر حقيقى .

« مكتوب على قلوبنا . . . عبد الناصر حبيبنا »

لفت المظاهرة شوارع المحلة ، شوارع لم أدخلها من سنوات ، شوارع تحلم بالتحضر والنظافة ، وحوارى مسكينة تئن من تخلف سنوات متراكمة فوق أنفاسها الواهنة ، وخرجت باكية هاتفة ، من أجل بدلة عسكرية لتحميها ، وديمقراطية اللحظة التى ليست ملكا لهم ، واقتحمت المظاهرة الحقول البعيدة تستنهضها من ليل ثقيل ، فعلت أصوات صرصور الليل والضفادع وهبت من مكانها الخفافيش تخبط فى وجوهنا البائسة ، وارتفع النباح من حيث لا ندرى ، ملأت رائحة الحقول صدرى ودفعتنى معهم حتى مساكن عمال الشركة ، فخرج العمال يهرولون حفاة الأقدام ، حاملين صوراً للزعيم كانت فى الدوالايب منذ احتفالات عيد العمال الفائت . النسوة تجرى تولول ، والفتيات يلطمن . عندئذ تبلدت كل مشاعرى . لا حزن ولا دمع ولا انفعال ولاهتاف ولاحتى مساندة فريد . تحول كل شئ وتجمع ليصير نقطة مرارة لم تبرح حلقى .

– لا . . . لم يدبرها الاتحاد الاشتراكى .

- تريدون أن تسلبونا أى فعل . . حتى اللطم والبكاء !
كيف دبروها ونفذنا نحن بلا أوامر ؟ كنت مع فريد ومحمد وعاطف، لم نتلق تعليمات ، لكن قلوبنا تلقت الإشارة . عبد الناصر حبيبنا .
وعندما انتهينا أمام مبنى الاتحاد الاشتراكي جلسنا أرضا - على أسفلت يبخ صهد النهار لا يرأف بنا ، نهضت استندت إلى عمود كهربائى ، عيناى معلقتان هناك بشرفة الاتحاد الاشتراكى بميكرفون أسود لاستمع فيما بعد لحكاية جديدة . الآلاف تجلس أرضا ، تنام ، تنتحب فى صمت مهيب .
- نعم يا أبى .
سألته ، فمد يده بكتاب تفسير الأحلام لابن سرين ، وسألنى أن أفتح الكتاب على حرف الغين ، ففتحته ، وقال :
- أقرأ لى تفسير « غَزْل »
طالعت الحروف : غم - غلبة - غناء - غلق - غزل ، ثم قرأت له وهو يتصنت باهتمام قلق :
« غزل . . . . إذ ارأت المرأة فى المنام أنها تغزل وتسرع فى الغزل فأنه يقدم لها غائب فإن تأنت فى الغزل فإنها تسافر أو يسافر زوجها . فإن أنقطعت فلكة المغزل أقامت من سفرها أو انفسخ عزم
مسافرها فإن غزلت قطنا فإنها . . . .
أشار لى أن أصمت ، فصمتُ . نظرت فى عينيه ولم أفهم ، ولمحت ارتعاشة شفته السفلى . عبرت أمى وهى تجرجر شوال دقيق . سألته ماذا يا أبى ؟ فقال بحسم :
- جلال ابن عمتك لن يرجع من سيناء .
قلت بأسى أنه لم يرجع بالفعل . . سنتان ولم يرجع ، فمتى ؟ قال:
- لا . . . كنت أظنه تائها فى سيناء وسيرجع . . . لكن
عمتك كانت تهمل الغزل حين رأيتها فى المنام
وجالسة بجوار صباره . . . لن يرجع يا جابر . . . لن يرجع .

تركتــه على مهل . . . شــحبت . يداهمنى الموت مــرة أخرى بمرارة أخرى ! عندما ودعنى « جلال » كان هو الوحيــد غير المتحمس للحرب أو سيناء أو فلسطين أو حتى نفسه . لـم يبادلنى الرسائل ، لكن فى الاجازات كانت حكاياته ممتعة ، يداعب أبى ويضاحكه ، سخر من الحرب ويؤكد أننا لن نحارب ولن تنطلق فى سيناء طلقة نار واحدة ، وكان يدعى أن الرؤساء والملوك سيطبخونها . . حسب تعبيره .

مــشيت ببطء حــتى الطرقــة التى تبــدأ من باب البــيت إلى الحديقــة الصغيرة.

تلفت يمينا فرأيت شجرة التمرحنة عجوزاً كــبيرة ، ضخمة ، متربة ، عليها تحط ظلمه كثيــفة و . . . ابتسمت فى نفسى ، تذكرت جنى أبى ذاك من كان ينتظره على شجرة التــمرحنه . أعرف يا أبى أعرف . . كلما أردته وجدته ، أبتسمت وحدقت فى الشجرة وأخذت طريقى للخارج لألتقى بهم فى مقهى « جادو » .

عبرت جــسر الدلتا حيث الاسم فقط ، فلم يــعد هناك قطار دلتا ولا جــسر ولا غــيطان ولا عفــاريت . أعــرف يا أبى أعرف . . كــان يكح - العفريت - وأنت تعبره برجلك اليمنى أولاً . راح زمن الأساطير ، وانتهى زمن القوة والتحقق ، زمنك يا أبى حين كنت تحدد ما تريد لتــفعله ، وتقوم بالفــعل ورد الفعل وتصنع عــالمك كــما تشــاء وفى سكتك كنت تتحــدى العفــريت وجنيــة النهر ، ولكننا الآن فى زمن الورق والخناجــر ، لا نملك حتى أنفسنا ، نراهن عليها وكثيرا ما نخسر الرهان .

هاهى الوراقة مظلمة ، دكــاكين ذات زجاج لونه أزرق ، بيوت واطئة منكفئة على ذاتها ومصابيح شــاحبة زرقاء ، لو تلصصتُ الآن بعينى داخل البيــوت لرأيت اللاتى اتشحــن بالسواد يجلسن فى صــمت يسمــعن صوت مرتل القرآن من الراديو ويبكين ، ولا يبحن بأنه مات فى الجبهة .

نضحك على أنفسنا ونقول ربما سيعود يوما ، كى نأكل ونشرب وننام

ونخطف لحظات الانتشاء وتسترخى أيدينا بين النهود الدافئة ، سيعود .
وتخلينا بعد شهور الحرب أن جلال بكل شقاوته وجنونه وعبثه سيختار أن لا يعود مجتازا الصحراء لأنه يدرك أنه سيدركهم الموت قبل عبور القناة فى رجوع مرير ، ومن سيعبر مثل « عطية » سيصل ولم يبق فى سرواله سوى خيط وحيد شرب ملح ماء البحر ، وموت فى الفراش لمدة أسابيع . لكن جلال بشقاوته وعبثه سيظل هناك سيصاحب البدو وينام فى الخيمة ويتزوج ابنة البدوى ويخلف منها الصبيان والبنات وسيعود بعد عشرين سنة ومعه ابنته الكبرى وقد ضحك علينا جميعا ويجلس بيتنا يشرب البن ، يهرش شعره الأشيب ويحكى عن عرب سيناء وكيف أصبح شيخ العرب ونضحك ، نحكى تصوراتنا ونقهقه . أشاع افتقاده بيننا هذا الضحك وهذا الوهم صدقناه وأجبناه .

ولكن قال الأب أن عمتى كانت تهمل الغزل وهكذا قالت الرؤية أنه مات ، وعلينا الآن أن نتقبل العزاء . ترى كيف مات ؟! حصدتهم الطائرات . . هذا موت . دفنوهم أحياء فى مقابر جماعية . هذا موت .

هو دُفع إلى طريق الموت ، وأنا رجعت من أول الطريق : غير لائق طبياً . للخدمة العسكرية . هكذا كتبوا فى شهادتى الخضراء وسط دهشة الجميع ، فكنت الوحيد بين الآلاف الذى لم يقبل عسكريا - فى زمن الحشد - بسبب قاع عينى اليمنى .

استقبلتنى أمى حين رجعت بخوف وهم . ضربت صدرها . لماذا يا أمى ؟ كادت تسقط أرضا وهى تقول أمسكوا « سعيد » ، وربما يريدونك أنت أيضا . لا تصل الخطط إلى هذا الحد يا أمى . رفقا بنفسك . ضممتها إلىّ فظلت تبكى وتبكى . قال أبى :

- ذهبت لتقديم نفسك للخدمة العسكرية ،
فم تأكل ولم تشرب . فى البداية نظفت
الحجرة ، وجعلتها مثل زهرة الفل ، ثم
أغلقت با بها ، وقفلت بالمفتاح ، وجلست

بجوار حجرتك فوق السطح تبكى وتبكى
ويرتفع ضغط دمها ، وأقسمت لن
يدخلها أحد غير جابر ، ولن تفتح إلا عندما يعود جابر
ثم ابتسم وهو يقول :

- وها أنت يابن أمك فى حجرها . . .
هيا ياجميلة اطبخى لنا الكوارع
ولحمة الرأس .
هيا ياجميلة
وضحك طويلاً . .

فيما قالت عمتى :

- طبعا لم يدخل جابر الجيش . . أعرف
كيف . . . سيد . . . سيد كتب له حجابا
بالحبر الأحمر ، فخرج جابر . . من يخرج
هذه الأيام من الجيش ؟ لكن ابن سيد
يخرج . . . ولما قلت له ياسيد اكتب
حجابا لجلال قال عيب يا أم جلال !!
لا تخرفى يا أم جلال .

بينما رجعت أنا ، ، وذهب هو فى طريقه ولم يرجع . و . . .

ما السكة التى أمشى فيها ؟! تراب ومقابر . كيف وصلت إلى هنا ؟ لشد دهشتى وجدت نفسى أمام دار عمتى أم جلال . أأخذتنى الظلمة إليها أم الحنين لجلال ! ؟

كنت فى طريقى إلى مقهى « جادو » أبحث عنهم ، أو ربما وجدتها فى سكتى « توحة » التى تخرج لى كالجنى كلما أردتها بدفء شفتيها ، بالشجرة التمرحنة التى حطت فى قلبى بكل حواديت أبى التى سكنتنى . لكننى أعى إنها ليست خدعة ، توحة حقيقية بشعر أحمر ونمش منثور فى الوجه الابيض ، وشفتين . و . . . أنفتح باب الدار ، ورمت الصالة

بضوئها على وجهى . . .

- جابر !!

هتفت عمتى وأردفت وهى تهتز أنفعالاً :

- تعال . . . ياخويا . . . يابنى . . . ياضنايا

وضمتنى لحظتها ، طبطبت على ظهرى ، قبلتنى ، وخبطت نظارتى فى نظارتهـا ، وكنت قد وضـعت على عينيى نظارة طبـية بعـد اكتـشافى موضـوع قاع عينى اليمنـى ، ومنذ وضعتهـا على وجهى لم أخلعهـا حتى اللحظة . قبلتنى وأنا ذاهل ، استدعـتنى حكايات جلال ومشيتِ وراءها . استـسلمت لحضنها ، توحـة لاترضىِ بالاستـسلام ، واستـقبلتُ بكاءها ، وظلت تمسح أنفها حتى صار أحـمر وهى تقول أن جابر هو جلال وجلال هو جابر . لا تبعد عنى يا جلال قـالت وهى تتوسل لى بعينين دامعتين ، فقلت لها حاضر ولم أصحح لها ،

جلستُ معهـن ، عمتى وبناتها ، رأيت فى عيـونهن الحزن الدفين ، لكنهن لايرتدين السـواد . أنا مؤمنة يابنى . عمـتى قالت . أخـترن فكرة الوهم الخادع فـلا هن فى حزن مقيم أو فـرح بهيج . مثل حـالة اللاحرب واللاسلم التى يُروج لها فى صفحة الأهرام كل جـمعة . شربت الشاى ثم بدأت عمـتى فى حكى بصوت هامس شجـى ، وكان يعلو رويداً رويداً . وحكت أنهـا حلمت أن جلال أسـير فى السـجون الإسرائيلـية ، وأردفت بفرح آه لو كان أسـيراً بحق لوزعت الشربات على الدنيا كـلها . ثم مالت إلىِ وسألت باهتمام ووجل : أليس أسيـرا معناه أنه سيرجع . قلت نعم . كتَمت ضحكة فرحة وهى تهمس فى أذنى :

اسكت . . . يقـولون أن كثـيـراً من الجنود الذين رجـعوا من سـيناء رجعوا بلا أيدى أو أرجل ،

الحمد لله أن جلال لم يرجع مثلهم ويقول عطية

ابن خالتك أنه كان يبول فى خوذته ويبردها ثم يشرب . . الحمد لله أن جلال لم يشرب مثلهم .

صمتت طويلاً وصمتنا جميعا . كانت تبحلق في صورة جلال المعلقة ، خلعت نظارتها ، ثم لمعتها في ذيل جلبابها ، ثم قالت :

- الأسير يأكل ويشرب . . أليس كذلك يا ضنايا ؟

هززت رأسي موافق . وأعرف أن أسرى إسرائيل لا يقعون تحت طائلة القانون ولا حقوق الانسان ، ولا أى مواثيق فى العالم لأنها دولة خارجة عن القانون . وجلال صورته معلقة على الحائط ببدلته العسكرية . لم يرها معلقة ، لكنهم عثروا عليها صورة صغيرة تم تكبيرها فى الاستديو وعلقوها أمام عيونهن ليشاركهن الأكل والشرب وبعض الضحكات التى تنطلق فى لحظات النسيان . وسمعنا إلى القرآن . وحكت لى كيف كان جلال لطيفا وخفيفا وحنونا . وقالت وهى تعض شفتيها ، وتفرك يديها :

- وهو صغير ما يزال ، رأيته فى المنام يلعب معى
كأننا فى غابة كثيفة الشجر ، وكأننى كنت
صبية ، وكنا نلعب معا ، وحين كان يراوغنى
إذ به يختفى ، وبحثت عنه كثيرا ولم أجده .

مسحت أنفها بطرف طرحتها ، وأردفت :

- كأنه ياعينى طير صغير فزمن مكانه واختفى .

بصت لى طويلاً وقالت :

- وياضنايا . . . لم أجده .

ثم ضحكت وقالت :

- خير . . أسأل سيد ليفسر لى الحلم .

قلت :

- خير يا عمتى . . . خير . . .

سكتت ، ثم المعت عيناها وجحظت وضربت صدرها ضربة قوية وهى تصرخ : خير !! أى خير ! أى خير !! . ثم لطمت وجهها وزعقت وولولت وشقت جلبابها نصفين وهى تهذى ، فقمت من مكانى كالملسوع ، وأشارت البنت الكبرى أن أصمت تماما . تسحبت بجوار

الحـائط وخـرجت قبل أن أصـرخ أنا الآخـر ، وأدركت أن كل مَاتلف به أنفسنا من صمت وصبر وصمود ما هو إلا خدعة كبرى .

وخـرجت للظلمة . وجـدتنى فى طريق بيت جـدتى - هكذا اسمـه عندنا لا نقول بيت جـدى لأننا لم نر جدى فيـه أبدا - حيث المقابر قـائمة وأشبـاح النخيـل تطل من عـل . فى البداية رأيت كلبـا - يجرى فـجأة تجاهى ، ثم وقف ، تماسكت ومضيت ، ثـم خلسة نظرت خلفى فوجدت كلابا تهـز ذيولها ، وحتمـيا أن أمش فمشـيت . لف حولى كلب . وبدأ يتـشمـمنى ، ارتجفت فـأخـذ فـى النبـاح فاهتـزت أوصالى ونبـحت كل الكلاب ، وكأننى فى ظلمة الليـل تلك رأيت أنيابها جميعـا فهرعتُ ، لم تتركنى ، تطاردنى الكلاب بشراسة ، تكاد فى كل لحظة أن تنهشنى ، كل لحظة أشعر أنى أنقـذت من أسنان وأنياب ، فجريت بكل مـا استطيع حتى قابلت أول دكان مـفتوح فدخلته ألهث وأكـاد أموت غيظا ، وهى الكلاب ظلت واقفة أمـام الدكان تنبح باتجاهى ، فخرج صاحب الدكـان وقال كمن يهمس : امش .

فمشوا جـميعا يجروا أذيالهم !! مسحت عـرقى بخجل ، وتنفست الصعداء .

قال صاحب الدكان بلا ود : أى خدمة ! . فأخرجت نقودا من جيبى وطلبت شراء علبة سجائر ، وأنا لا أدخن . أخذتها مرتبكا ومضيت .

وجدت رجـلاً يمشى بجدية مطوحا ذراعـيه وبيده سـيجارة ، مـشيت وراءه اسـتأنس بـه حتى شـاهدت الوراقـة من بعـيد فـأسـرعت الخطى . ووجدتنى بكل ألم فى نفس مكانى الذى كنت أنوى المضى منه إلى مقهى « جـادو » لكنتى نزلت من المزلقان إلـى حمـام البلدية المهجـور ودلفت إلى الحارة الضيقـة ، ثم انفتح العالم لأرى مساحة الغـيطان المظلمة وفى اليمين بيتنا بحديقته . . نظرتُ لأعلى للطابق الثالث فرأيت حجرتى مضاءة بالنيون والنافذة مـفتوحة على السـماء . أبتسمت . . إنهم بانتظارى بالحـجرة التى فوق السطح .

- ٢ -

وكان عليّ أن أحول حجرتي إلى مدينة ؟

- أصحيح يا مظفر .

أن غصنا طمرته الريح فى الصحراء
رغم الريح والصحراء
أخضر ؟

ثلج صدرى ، ووضعت رأسى على الوسادة ومددت رجلى على ركبتى أحمد الجالس على حافة السرير يسمع لفريد . قلما يحفظ فريد شعره لكنه حفظ هذه الأبيات للشاعر العراقى « بلند الحيدرى » كأنه يهديها إلىّ ولحبى لمظفر المرهون فى سجن ينتظرنا جميعاً . لا أعرف بالضبط سر ولعى بهؤلاء المطاردين . مر الهاجس فاعتدلت جالساً . إنهم مبدعون يحلمون بأكثر ما يحكم الزعماء ، إذا قال الزعيم نزرع شجرة ، يزرعون هم البساتين ، ونحن نحفر فى كل أرض ، وننظفها من الموت لنزرع . واحفظ البذور العام تلو العام ، اضع البذور فى الأكياس ، أخبأها من نار الشمس والحشرات والعفن ، مرة تحت السرير ، ومرة تحت الدولاب ، وحين نكون فى مقهى « جادو » ومباريات الطاولة فى قمة إثارتها أنهض كالملسوع بظنى أن كيس البذور قد وقع بين أسنان فأر . الفئران تختفى فى النهار وتدخل فى الظلمة من أضيق ثقب ، صدرى يضيق بها ، أكرهها كما كرهت البرص والصرصور والمخبر الذى يلازمنى ليل نهار . ما أن

أخرج من باب حديقتنا حتى يطوى جريدته ليمشى خلفى ، أشعر بعينيه فى ظهرى بتـوترهما وغبائهـما : تقول أمى : رأيته اليـوم وقد خلع نظارة عن وجهـه وأرتدى البالطو الأسـود ، وذات مرة همست لى إنه لاحظنى وأنا الاحظة : مـشى خلفك ثم توقف تماما أمـامى عند عتـبة البـيت وأطل فى وجهى بعينين ذات شرر كأنه يحرقنى يابنى . نهضت من جوار أختى إفراجَ وقبلت رأسـها ، مكانك الجنة يا أمى وأزهى الأشـجار ، وأجـمل العشب وسادة تحت قدميك ، وأنقى زهرات العالم مثواك . لا تخافى . . لاتخافى إنه مجرد روتين . . عمل . . حذاء يسـير فوق خطوط مرسومة . . روتين . . . لا تخافى .

ولما أمسيت ذات ليلة فى هذه الحجـرة التى فوق السطـح دقت الباب دقتين ودخلت ، طبطبت على ظهرى ، وقالت :

- ياجابر . . . . . أنت تحب عبد الناصر وعبد الحليم حافظ
الذى يقول رسينا ملاح ومعدينا عامل وفلاح
من أهالينا . . . . .

تمتمتُ : ومنا فينا الموج والمركب والصحبة والريس . . . .

- فلماذا يتابعونك . . ويسألون عنك البقال
والمزين والقهوجى . . . ولماذا المخبر وراءك
فى كل يوم . . . . ولماذا يطلبونك ويسألونك ؟

تمتمتُ : مات شـهدى وهو يهتف بحيـاته . وأنا لا أفهم ياأمى ؟ ثم صحت فى ضـيق تحملتـهُ : مجرد روتين . أنا لا أفـعل شيـئا ، لا أملك سوى هذه الكتب وهذه القـصص وبعض الأحلام . . . و . . بالنسـبة لهم مجرد أداء وظيفة .

قدم لـى كوب الشـاى ، وجهه غـاضب ، وجسـده ضخم ، يـبدو مرهقاً.

أزلت غباراً من فوق بنطلونى الأسود وأنا أقول :

- نعم ياسيدى . . ماكان لى غير أن أختار اللون
الأحمر للديك . . ليس رمزا . . . ولكن . . هل من
اللائق أن أقول ديك أزرق اللون . . . ياسيدى ؟

دخلتْ عليّ لاهثة خلف قلبـها الذى يحدثهـا ودائما ، وكنت أنكت الأشياء . همستْ فارتعدتُ :

- تبَحث عن ماذا ؟

ولما قلت لها كطفل يموت حبا فى لعـبته : أبحث عن كيس البذور . مـدت يدها المرسـوم عليـها سـمكتين خـضراوتين وأخـرجت الكيس من صدرها ، أخذته دافئاً واحتضنته وشممتُ رائحة عرقها .

« أصحيح يامظفر
أن ذاك الغصن رغم البرد
رغم الريح أخضر »

هز فريد رأسه وزر عـينيه وخلع حذاءه ونهض ساخـرا من أحمد . هل تستطيع أن تكتب شعرا مثل هذا ؟ هذا هو الشعر . والفعل ضد أحمد لم يكن من طبـيعة فـريد . . ربما الشعـر هزه والحلم أيضا . تلقى أحـمد الاتهام وبدأ يسـتوعبه بطيـبته غير أن « مـحمد» حاول الإطاحـة برأى فريد وتكلم عن التقـرير المرفوض وأن الشعـر ليس منشورا سياسـيا ، ونظر إلى صورة جيفارا المعلقة فوق رأسى وأردف :

- لو قال تشى هذا لكاسترو لا يخسر شيئا
لكن الشعر يخسر الكثير » .

وهنا انبرى أحمـد مدافعا ليثبت وجـوده فأخطأ الطريق حيث وقع فى مصيـدة فريد وعاطف . ولأننى موقن أن للفن ضـرورة انزلق لسانى بسوء الحديث حيث قلت لأحمد أن شعره مثل آخرين لا يحسب له سوى صحيح الوزن والتفعيلة ، فبكى بشدة .

وضع أحمـد قدميـة فى حذائه كـيفمـا اتفق وخرج من باب الحـجرة

المفتوح مندفعا للخارج للسطح حيث النسمات الباردة ، كان يدهس بطة نستها أمي على السطح ، رفت البطة وفزعت وارتطمت بالحائط واختفت تحت « المسن » . لم تطاوعه قدماه لينزل ، فاستند إلى عشة الفراخ وبكى بشدة ، نشج ، جريت خلفه ، وكان لأحمد الوجه الأسمر وقلب الطفل البديع المتأثر ، فازدادت علامات حزنه المهيب ، رتبتُ على كتفه ، رتبت على ظهره : أنا أسف . . لم أقصد .

لم يكف عن البكاء ، شج الصمت الكائن فى الظلمة ، ومن الخلف جاء الصوت مرتفعا همجيا به فرح :

- يانخلتين فى العلالى

يابلحهم دوا . . .

يانخلتين . .

ثم رآنى مع أحمد فهتف مداعباً:

- ياولاد الكلب. ماذ تفعلان وحدكما

فى ظلمة الليل البهيم ؟

هكذا « عبده » دائما مهرجاً إلى أقصى الحدود . . . مكتئباً إلى أقصى الحدود !

كان يصعد درجات السلم حاملاً أبنة أخى الصغرى مثل أرنب صغير فى دفء وحش ضخم ، لكنه حين سمع النشيج ترك البنت تنزلق من بين يديه وتتقافز كعنزه وهى تهبط درجات السلم ، وبدون أن يعرف أى سبب لأى موضوع اتجه لأحمد مباشرة أمراً :

- ولد . . . كف عن البكاء

ثم صرخ

- كف

وافترشنا جميعا أرض السطح نقول لعبده الذى انخرط فى البكاء :

- لاتبك ياعبده . . لماذا تبكى يا عبده . . روحك يا عبده .

حتى أحمد كان يجفف دمعه : لا تبك يا عبده .

وقال عبده فيما قال : انكم تقتلون الشعر . وتكلم عن الحس والجمال ، وإن الثورة لو خلت من حس وجمال تبقى خرقة قديمة . وسأل بدهشة:

كيف نقتل بعضنا فى هذه الحجرة فوق السطح .

- الشاى .

. هكذا هتفت إفراج وهى تحمل صينية الشاى . نهض عبده وأخذ الصينية وهتف :

- يمين بالله لن نشرب الشاى إلا بعد أن تقدم

لنا العشاء جميلة الشناوى أم الوسخ جابر .

وطلبوا فى إلحاح أن نسمع شعرا لأحمد ، فاقترحت أنا أن أقرأ لهم قصة « فانكا » التى أحبها لتشيكوف . وسمعوها . وأعرف كيف جرنا « عاطف » لحكايته مع أبيه ، وهذا العنف الغريب الذى لم أسمع عنه فى حياتى والتربص من أب تجاه ابن .

فتح علىّ حجرتى - هكذا قال فجأة - وكنت أمارس عادتى بينى وبين صورهن ، اشتهى تلك النهود الخرافية التى لن يعثر عليها أحد فى أشهى النساء ، واشتهى تلك الابتسامات المثيرة التى تسحق ابتسامة « الموناليزا» التى تثير قرفى شخصيا ، لقد جمعتهن من كل أنحاء العالم وهذا جهد لا يشكرنى أبى عليه ،وفاجأنى هو الأب يضربه من قدمه فى ظهرى حتى أنها قد جرحتنى أنا المسكين .

وركع على ركبتيه ، وقد عصر شفته السفلى تحت أسنانه ، ورفع ملابسه لأعلى . لم أر بوضوح أى أثار لضربة ، لكننى نهرته ، فأنزل ملابسه وحكى كيف أن أباه شده من بين أصحابه فى الحارة ليضربه أمامهم.

. كان الجميع قد أشعل السجائر

استرخى تماماً . تنهد ، ثم قال كمعلم ، موجهاً كلامه لى فى معظم

الأحيان :

- إن الصراع الحقيقى فى هذا العالم ليس
كما يزعم جابر صراع طبقات .. لا ... إنه
صراع السلطة بين الأب والأبن ، الأم
والأبنة .. صراع مرير إن استطعنا حله
سينصلح العالم ... صدقونى .. حينما صفعنى
على وجهى كنت أود أن أحرق العالم
.. أخربه .. أزفه إلى نهايته .

وعلق عيناه فى عـينيى . كنت حقا فـى حالة من الأسى ، ثم همس ذاهلاً :

- إننا نكره الطعام الذى يحبه أحدنا .. إنه
يكرهه الشرفة والشعر .. وأنا أكره
الحقنة والسبرتو وأوامر الطبيب .

صمت طويلاً ، ثم قال كأنه يهمس بسر دفين :

- هل تعرفون أن مشكلة العالم مشكلة نفسية ؟ !

انتتر « عبده » وهرع إلى جـانب السور وطلّ من عل . جريتُ إليه ، عاطف مقدورا عليه . لكن عبده !!

مـاذا ياعبده ؟ قـال لا ، لقـد هاجمنى بيت شعر ولابد أن اتخلص منه .

فيما سمعت ضحكة محمد عالية . وأردف محمد لعاطف :

- خائب . عندك البنات فى المعهد مثل
الهم على القلب ، حب واحدة ، خذها من
يدها واركب أول قطار ، سيرميك القطار
فى كل المحطات ، وفى كل محطة نفذ فعل الحب ،
ارشف كما تشاء ، وارو عطشك ، مديدك

واقبض على اللحم الدافئ الدافق بالحياة . . .

ياغبى . . .

ثم ضحك محمد عاليا ، ساخرا منا جميعا :

– الخوف من البنات سيحرقكم ، وهن يحترقن من أجل لمسة واحدة أو ركوب لمسافة محطة واحدة .

سمعتُ صوت أقدام إفراج حال صعودها درجات السلم وهى تنأى بحملها ، فجريت إليها وتبعنى محمد . أخذنا الصينية الكبيرة ، وضعناها أمامهم على الحصيره . هذا عادة كان يحدث فى معظم الليالى ، حيث تعرف أمي كم عددنا فوق السطح ، ومن يحب الطعمية ومن يحب الفول بالزيت الحار أو بالسمن ، ومن يعشق العسل الأبيض ، وحريصة على وجود السلاطة وقرون الشطة .

غير أن « محمد » هتف : شوربة عدس ، وجبن وزيتون ! !

قال أحمد سآكل من أجل خاطر إفراج . ربتُ عليه بحنو ، وضحك عبده قائلاً :

– يا أولاد الأبالسة .

ها هى النسمات الباردة تهب فتنعش الروح . سندت ظهرى لجوار الحجرة ، ونظرت مليا لوجهى محمد وفريد وهما يتسمان . فريد ممدد على فخذ عاطف ، ومحمد انتهى به الأمر كعادته بأن سحب كتاب الأغانى للأصفهانى من مكتبتى الصغيرة وأخذ يقرأ فيه ، وربما سأل عبده أحيانا ليعطى فرصة لعبده أن يزهو ويخبره أن ذاك الشاعر قال الجميع أنه من الموصل بينما أؤكد أنا عبده الغلبان أنه من الكوفة وعندى الأدلة والبراهين .

يبتسم محمد ابتسامه على جانب فمه بها قليل من السخرية وكثير من الدهشة منا جميعا .

ياجدار هذه الحجرة الذى يسندنى كأب . اسند رأسى إليه لأرتب

ذهنى . . ياللجدار . . محمد وفريد كانا معى يومها .

يومها كان الطوب والرمل والاسمنت فوق السطح ، حسبت أمى كل الطيور فى حجرة الفرن حتى يتم بناء الحجرة . همس لى عمر :- هل ستزعل لأننا طلّعناك فوق السطح ؟ هززت رأسى نفيا . وكنت الصغير يتملكنى فرح غامر أنى سأكون وحدى فى حجرة فوق سطح .

همس عمر الذى كان يشعر ذنبا لامبرر له لأننى سأترك العيش معه فى شقته بالطابق الثانى لأتيح له الزواج فيها ، همس :

- لو عاش الانسان فى كوخ يمكن أن يجعله
أفضل مكان فى العالم لو أحبه .

وأنا أحببت الحجرة ، زينتها بمن أحب جيفارا وفيروز وطفلة نوبية واشعار محمود درويش وبريخت ، ونبات قرع عسل له هيئة مزهرية . ثم صاروا أصحابى فى الليالى الباردة والانكسار وفى لحظات الفرح العارمة العابرة ، ونتحدث معاً طويلاً ، ولماذا القتال فى بوليفيا ؟ لماذا لم تسترح وزيرا فى كوبا ؟ هل كان لابد أن يضرب المثل حتى آخر رمق !! . . « أنا لحبيبى وحبيبى لى . . . كالراعى بين السوسن . . « هذه البيوت لا شيئ فيها . . كنا نعيش فيها » . . « سجل ولون العين بنى » ياه . .

كنت أرقبها طوبة طوبة ، تطلع للفضاء زهرة حجرية ، عبقت بأنفاسنا فيما بعد . راحت تصعد للسماء ومعها تأخذ روحى تبدلنى من صبى لرجل ، شكلت روحى فوهبتها روحى .

وكان الأصيل عندما صعدا محمد وفريد فوق سطحها ، لوحا لى ، وأنا الواقف على السطح بجوار أبى رددت التلويح بابتسامة ، وفى نفسى وهبت لهما هذه الحجرة التى فوق السطح .

ياللجدار الذى يهبنى الطمأنينة . سألت نفسى كثيرا كيف أترك العالم من أجل هذه الحجرة !

فى الليل الصقيع أغلق الباب ، واشعل وابور الجاز . وفى دفئها أظل

، تعطينى كل مـا تستطيع . بين جـدران أربعة وباب مـغلق حـرية بلا حدود . من يمنحنى عـالماً أوسع !! اتمدد فيهـا ، رأسى عند الباب ورجلى فى الجدار المقابل وعبـرى يمـر العالـم بفـقرائه وصراعاته ، يمر علىّ عبـد النـاصـر ويضـع فـوق صـدرى زهرة برائحة القرنفل ، واسمع «مانديلا» ينادى بصوت أسمـر من قلب تخلف العالم ، وديستوفـسكى يضع أحماله علـى كتـفـى ويمضى ، وتشيكوف يمسح جبـينى بيد حانيـة . تشيكوف على . . . على تشيكوف . . على المنصـورى ، النسمة التى تهبُ علىّ فى الليالى السوداء فتضيئها بهجة ، والذى كـثيرا ما أرجع فأجده مقعياً بجانب البيت ، أحبه مثل « انوبيس » كلاهما يحرس روحى من فناء وعدم .

اتمدد من الباب للجدار من المحيط إلى الخليج من الشمال إلى الجنوب هذه مساحـة حجرتى ، تمر علىّ أمى تضع أرغفة الخـبز وبصلة فوق بطنى وتمطرنى بعشرات القبل ، تدعو لى أن يحبنى الحصى فى الأراضى ، وتشد يدها بقوة وسرعة حين أحاول تقبيلها . لمذا يا أمى لم تمنحينى شرف تقبيل قـدمـيك يومـا ، وتوحـة ترشنى عطرا ، تمـيل علىّ فـأرى نورا من طوق جلبابها ، وتضع الآيقونة خلف رأسى وتتمتم بنشـيد عسير الفهم ، ممسكة بمفتاح الحيـاة بلهفة وطموحٍ ، يلتفون حولى ينشـدون أنشودة أبدية تحمينى من الموت وعبث الحيـاة . تُفتح الحجرة نافـذة . على الشرق الذى أضحى حلمى بكل طموحـاته وعذاباته ، فلماذا الأن أزعل؟ ٦٧ رقم تافـه سوف نسحـقه . كيف يسـتطيع الوطن أن يعيش فى فـرح دائم ؟ للحزن رهافـته وللألم طموح تجاوزه .

– ياليله بيضا

يانهار

لم يلتفت أحد غيرى إليه . رمى السلام وهو يغنى ، ووضع صندوق الأحذية على الأرض . قلت : الزغبى مـاسح الأحذية يغنى ياليلة بيـضا وكل أحذيتنا سوداء . وضحكنا ، فقال لى مساء الفل ياجابر .

كيف حالك يازغبى ؟ يجيب وهو يعدل كـرسيه الصغير الذى يحمله تحت إبطه اينما ذهب :

- عال العال . . المقاهى ستغلق أبوابها
على الحشاشين ، ولن يفكر أحدهم فى
تلميع حذائه ، فجئت لصحبة الأنس ،
والكلام العسل وقبل أن أصعد خبطت
على باب « أم محمد » ست الكل لتلحقنى
بكوب الشاى مع إفراج .

نهـضـت ووضعـت شـريط أغنيـة « عودت عـينى على رؤياك » لأم كلثوم ، وما أن انطـلق صوتها حتى اهتزت أرجـاء المكان ، ورأيت النجوم تهتز فى مجراتها « قربك نعيم الروح . ونظرتك سحر وإلهام » .

للصـوت أبهتـه وجلاله ، يشـجينى ويرهقنى . عكر الـزغبى صـفو الأغنية عندما قال وهو يلمع حذاء أحمد .

- يضربون الآن فى القرى المصرية . . .
لن نهتم وسنواصل ضربهم فى الجبة .
سكت لحظات ثم سأل :
- أليس كذلك ياجابر ؟
قلت باعجاب حقيقى يشوبه بعض فخر :
- الاستنزاف . . أعظم مراحل حياتنا التاريخية . . .
تعلمنا كيف نحارب . . . وهو الذى أنقذنا من موت حقيقى .

كـانوا ينظرون تجـاهى فى انتظار إضـافـة أخـرى . هرشت رأسى . أضفت :

- أصبحنا جميعا نتعامل مع العدو تعاملاً يوميا .
وحقيقياً . . وضعتنا الهزيمة أمام مهمتنا
التاريخية . . . و . . . .

صحح أحمد فيما يرى :

- النكسة . . النكسة ياجابر . . . .

فجأة نهض بجسده الفارغ وأشار لى أن أتبعه ، فتبعت « عبده » عبرنا الحجرة إلى الشـرفة . فى العزب سواد يحط فوق الحقـول ، شعرت تنفس الحقول الثقيل .

- نعم !

فـأخذ يحـدثنى عن تحـذيراته التى لا يملهـا عن الزغبى ، قـال وهو يهمس منفعلاً :

- قلت لكم ألف مرة أنه مخبر .

حاولت اقناعة بأن الزغبى عاش عـمره كله فى الوراقة ، وعلى مقهى حافظ ، وأكل مع أبى وأخى وشرب مئـات الأكواب من الشاى فى بيتنا ، وكنت مازلت ألعب فى كل شبر كرة القدم سواء فى الحوارى أو الملاعب ، ولا يمكن أنهم زرعوا مخبرا لى منذ نعومة أظفارى كما يقولون ياعبده .

يزغر لى « عبده » يكاد يضعنى تحت أسنانه ، يحذر :

- لا تتكلمون فى السياسة أمامه .

ويشخط فىّ :

- الأمان . . . الأمان يا غبى .

يلسعنى البـرد . أى زمان وأى سياسـة . مصر كلها حـالة واحدة ، وغضبنا مشروع وأحلامنا حقنا . والزغبى ليس مخبراً .

وتركتـه ودخلت الحجرة . سـمعته وربما سـمعه الاخـرون وهو يقول بغضب من بين أسنانه :

- سترمون كلكم فى السجن بسبب ماسح الأحذية .

بالصدفة زعق الزغبى :

- حذاءك ياسى عبده . . . .

ثم أردف ساخراً

- لن ألمعه فهو بلا لون .

ضحك الجميع ، وعلت ضحكة محمد ذات الذيل التى أنهاها كفتاة لعوب . وهنا أشار أحمد ليصمت الجميع فصمتوا ، وتناهى لى صوته يقول شعره بوقار وتؤده .

تمددت على السرير ، شممت رائحة شَعر « توحة » فى الوسادة ، اسمع الشعر وأحلم به ، وإذا بفريد يأتى إلى ، ثم يشدنى من قفاى لأنهض لأسمع أحمد ونهرنى قائلاً :

- كيف عن تلقائيتك .

انحشرت بين عاطف ومحمد ، والزغبى ينهى تلميع الأحذية باستمتاع شديد ويشرب كوب الشاى على مهل . اومأت لأحمد فمضى يلقى بحماسة وابتسم فريد ، وسمعت بعد الشعر مطولات فى النقد على إثرها نام عاطف بعمق مستندا على بطن محمد ، وحمل الزغبى صندوقه وهبط درجات السلم ، يردد بصوت خفيض حتى لا يسمعه عمر :

- ياليلة بيضا

وطلع الفجر علينا فبردنا ودخلنا حجرتنا التى فوق السطح .

- ٣ -

كيف تكون طائراً وطفلاً وشيخاً مثل جميل

استأذن من الجميع وقال لى هامساً : سأذهب معك .

نظرت إليه ملياً ، يملك عينين بسامتين مضيئتين فى وجهه الأسمر بهما عذوبة واصرار لا أفهمه زم شفتيه ثم ابتسم فادراً يده الصغيرة الكف : إن كنت لا تريد إعتذر . . وأمضى أنا معهم-.

كيف أعتذر أمام نسمة لا أعرف من أين أتت ؟ ، أمام عطر لم أشمه من قبل ، ولا أعرف من أى ريح رمت بهإلىّ ! مد يده كى يسلم علىّ .

هم . . وأنا . . كنا . . منذ قليل انتهينا من ندوة فى القصة القصيرة ، بتلك الغرفة الواسعة لقصر الثقافة الذى كان قصراً للباشا هم تكلموا بما فيه الكفاية وقرأوا قصصهم وسمع "جميل" لهم جميعاً ، هو القادم من القاهرة المكان ، لكنه فى الواقع القادم من الشمس بعد أن تكون من ذرات تاريخ قديم يهفو لمستقبل لا يملك أحد الحلم به .

عندما حضر قبل الندوة بملابسه البسيطة كتلميذ فى مدرسة ، التف الجميع حوله ما عداى ، فأنا بحذر أقف وبلا اندفاع أتعامل مع من لا أعرفه ، سلمت عليه بحياد ظاهر ، لكن فى داخلى كنت لا أصدق إننى التقيت أخيراً بهذا العقل ، فيما محمد ترتفع ضحكاته عالية ويتقدمه ، ويجلس بجواره ، ينوب عنا جميعاً فى الكلام وتقديم ثقافتنا والتجلى بمعرفتنا أحمد يجهز المكان والكراسى ويراجع الميكرفون ، وفريد يقهقه بين كاتبتين صغيرتين لا تكتبان شيئاً حقيقياً ، أدهشنى الجمع كنا نلتقى فى القصر ثم تأخذنا الشوارع للحارات للغيطان للبيوت للحجرات الصغيرة الضيقة الواسعة مثل عالم ، نتجادل بلا توقف ، نتعطش لحرف جديد لصفحة جيدة ، وبيننا بلزاك ، وناظم حكمت وبودلير وبيكاسو وايلوار

والبياتي والمتنبي ، وفلسـفات يشق عليّ فهمهـا ، ولما يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسـود كنت أرجع إلى حجـرتي فوق السطح ، وكـيف أنام ؟ أفتح كـتاباً وكتـاباً وكتاباً التـهم الصفحـات ، يتعب ذهني فأتمدد ، أتهـيأ للقائهم .

وفي وقت الظهـيرة أخـرج وحدي ، أقطع شـارع العبـاسي في ثوان لأصل إلى المكتبة القديمة الضيقة الـعميقة الطول ، أترك الشمس في الخارج وألج إلى العتـمة ، يضحك عم طلعت : تبحث عن مـاذا ؟ يسأل ولا أرد يرشف القـهوة ثم يقـول . . يا بني أنا حافظ مكان الكتب لا أسـمع له ، أدخل في عمق المكتبة تقودني تلك الرائحة إليها رائحة الورق القديم المكتوم له رائحة الرطوبة ، وما أن أمسك بكتـاب حتى لا أتركه ، يصبح بحوزتي صفاً كبيراً ، ابتسم نعم طلعت بأسف معلنا بقسمات وجهي عن عدم كفاية القروش ، وأخرج شلناً أو بريزة وابتسم في استسلام . . ماذا أفعل ؟ يبتسم هو أيضاً: لا يهـمك هكذا ينطق فأحمل الكتب. تقـابلني إفراج على باب الحديـــقة تشيل الكتب على رأسها وتصعد ، وتقول :

– عقبال لما أشيل يوم فرحك .

الجميع التف حول "جـميل" وأنا كنت أرهبه منذ اللحظة الأولى . . نظر لي بعينين تحـملان أسئلة كثـيرة ، ربما أكبر مني ، بينهم جـميعاً فـيما عيناه تبحث عني ، تحط عليَّ من أي زاوية ، وكنت لا أسـتطيع فهم كيف يتفجر شخص بهذا الحب المبهم! وهم كانوا في غاية التألق والفرح يتفجرون شعراً وقصصاً من حوله ، الجميع عرض عليه بيته وحجرته ولقمته وقصصه وتابعت هذه التظاهرة بصمت من يرى مشهداً في فيلم ، إذ كنت قد قررت أن أدعوه لحجرتي التي فوق السطح ، وكان الجميع قد قرر أن "جميل" لن يرجع بلاده الليلة ، ومضينا في الشـارع في تظاهرة حب غريبة ، أعرف أن عيون المجندين ترقبها من بعيد وأقـول لنفسي حقهم ، ،ولكن عبثاً حاولت أن أضبط أحدهم متلـبساً بمراقبتنا ، لو أمي معي لعرفـتهم ، عندها حدس

غريب تجاههم ، تعرفهم منذ كانوا يتابعون أخي الكبير لتهمة ثقافية وسياسية أخرى ، كنت صغيراً عندما استدعوا أخي لمكتبهم ، وسمعت من أمي وأبي كلاما عن المكان فعرفت الشارع ، وسمعت عن شكل العمارة الذى عرفته أيضاً ، وبينما أمى قد نشف ريقها وأكل منها الخوف الطمأنينة وحط فى قلبها الهلع ، تسللت ، لم يرنى أحد ، أرتديت معطفاً أزرق قديماً ثقيلاً ، وحشرت قدمى فى صندل صيفى خفيف ، وبقوة واصرار طفل يجهل كل قواعد الدنيا السفلى وصلت للمكان ، سألت البقال عن العمارة فقال نعم ، فصعدت ،خبطت خبطة واحدة على باب الشقة فانفتح ، وقال لى رجل أصلع إنها ليست شقة أحد ، ثم سألنى بدهشة من تريد ؟ فقلت أخى عمر ، وكأنه يعرف أخى عمر شدنى برفقٍ من يدى اليمنى ، وتصرف معى كأى رجل طبيب فى العالم طبطب علىّ وأجلسنى على الدكة ، صمت المكان وبرودته سرباً لى الخوف المفاجئ تلعثمت ثم سألته عن عمر ، رفع عيناه عن أوراق أمامه وقال عمر مع البك . . . لا تقلق يا بنى طال الوقت ، عضضت شفتى ، وإزددت برداً رغم المعطف الأزرق الثقيل القديم ، تيبست أصابع قدمى التى تطل من الصندل الصيفى الضيق ، يتصدر المكان مكتب كبير يجلس إليه رجل قوى البنيان والشكل ، وبجواره مكتب صغير ورجل عجوز ، وفى الجانب دكة طويلة شديدة النعومة وثلاثة كراسى ، فى البداية كان المكان خالياً ولكن بعد ساعتين دخل شاب يخيل جداً وشاب قصير وشاب بدين كانوا لا يتكلمون ، فقط يتبادلون النظرات المرتبكة ، ثم بدأوا يهمسون يرتدون ملابساً أعرفها هى عادة ملابس عمال الشركة ، فى عيونهم سكون يشبه الاستسلام ويشبه الطمأنينة ويشبة القدرة على الفعل ، سألت نفسى هل هم أصحاب أخى عمر !

يبدو أنى ارتعشت من البرد ، فقد جاء الرجل الطيب ونده لى تعال ، فانصعت إليه ، ادخلنى حجرة ضيقة أكثر دفئا وصورة الرئيس مبتسماً تتصدر الحجرة ، جلست فى مواجهة ابتسامة الرئيس مباشرة وسألت عن

عمر ، فقال لى الرجل عمر مع البك ، قلت متسائلاً وغصة فى حلقى : هل ستحبسونه؟ ضحك الرجل قائلاً : أبداً . . إن البك يسأله بعض الأسئلة وهو - عمر - يجيب عليها وأردف وهو يبتسم نحن لسنا فى سجن ثم سألنى أن يحضر لى شاياً فوافقت على الفور وسألنى أنت فى المرحلة الابتدائية ، قلت لا . . فى الإعدادية ، فسألنى ماذا تحب ؟ استغربت ، لكنى أجبت : الزمالك . . واسماعيل ياسين .

ضحك كرجل طيب ، ثم سألنى : وماذا تكره ؟ اندهشت . . فكرت طويلاً . . ثم أجبت لا أكره فقال ماذا لا تحب ؟ أجبت بسرعة حتى لا يزعل : لا أحب تشومبى هنا صار رجلا غير طيب . . فوقف متنفضاً وهو يتمتم : تشومبى ؟ فرددت عليه : نعم . . زميلنا . . عنيف ويضرب وقليل الأدب . . وأمى قالت لى لا تلعب معه . . عاودته الابتسامة ، اقترب منى ، ربت علىّ . ومضى . اختفى طويلاً ثم رجع بكوب شاى ، رشفته على مهل ، وقررت اننى لا أترك هذه الحجرة إلا مع أخى عمر لن أتركه لهم ، وهالنى أن الرجل أومأ برأسه وهو يقول سترجع مع أخيك لكنه زغر لى وحذرنى أن أفعلها مرة أخرى .

ثم دخل الحجرة الضيقة رجل نحيل جداً وطويل أيضاً بأذنين طويلتين ، وأشار لى بأصبع طويلة أن أنهض فنهضت وهمس . . أخوك.

دهش عمر تماماً حين رآنى ، كاد يشهق ، احتضننى ونزلنا درجات السلم فوجدتهم بانتظاره أصحاب آخى الذين صاروا أصحابى بعد سنوات ، ضحكوا عالياً عالياً جداً ، أحدهم وضع يده على كتف أخى ومشينا ، كان من بينهم شخص سمين جداً ذو حواجب ثقيلة ، وشخص أبيض اللون هادئ تماماً ، وشخص يكز على أسنانه .

ابتسمت هم الآن حول "جميل" ماعدا أخى الذى أخذته الحياة والدورس الخصوصية ورغبته فى بناء الطابق الثانى فى بيتنا ذى الحديقة .

فى مفترق الطرق وقف الجمع . وقفت بعيداً بعض الشئ كان عليه أن يختار وفاجأ الجميع بأن قال : سأذهب مع جابر ثم ضحك ضحكة لها الف دلالة ، ضحكة تلف الجميع بهجة ، وتنسى الجميع أى حساسية فى الاختيار وأى سوء فهم ، كان الاختيار كأنه عفواً وبلا هدف وبصدفة ، غير أنه حسم الأمر وسلم عليهم واقترح - مجرد اقتراح - أن يأتى معنا فريد ومحمد ، واختياره العفوى ومجرد اقتراحه هو ما تحقق فى تلك الليلة البعيدة .

قبل أن يصعد لحجرتى كان قد دخل قلب أمى واخواتى وأبى ، وجلس بينهم . اغلقوا التليفزيون وقدموا الأكل والشاى وتبادلوا الحكايات والنكات والضحكات . وجميل اندهش كثيراً من حكاية الجنى الذى صاحب أبى فى السنوات البعيدة الماضية بل وخرج إلى الحديقة ليرى بنفسه شجرة التمرحنة ذات الشجرة التى كثيراً ما تعلق بها الجنى منتظراً أبى ، رجع بعد أن مط شفتيه عجباً ودهشة ثم حين أبدى اعجابه البالغ بشجرة الرمان ، وجلس مع الأولاد والبنات فى حجرة تطل على الحديقة. فى البداية لعب معهم بعض ألعاب الطفولة ، يهزمونه فى بعضها فيضحك عالياً وهو يضرب كف بكف ، وحين يفوز فى لعبة يقول هذا لأنى كبير وأنا اتابع كل هذا بابتسامة وثقة فى شخص لا أعرفه وكنت أتركه بعض الوقت لأصعد لفريد ومحمد اللذان بالحجرة ينتظران ولما أدركا أن "جميل " استقر فى الدور الثانى أخذ يلعبان الشطرنج وكنت أتركهما بعض الوقت وانزل أطل على جميل. وجدته جالساً على الأرض وهم وهن حوله لهم حواديت نوبية ، ويتوقف خلال الحدوتة كثيراً ليوضح مثلاً أن الناس طيبين ولكن الصراع بين الأمير والولد الطيب لم يكن على ست الحسن فقط إنما كان بين سلطة الأمير وولد لا ينبغى أن ينافس الأمير حتى ولو على حب ست الحسن والجمال ثم تجلجل ضحكته عالياً، يتأمله الصغار برهة ثم معاً

ينطلقون فى ضحكة جماعية . اقتربت منه ، همست فى اذنه أن الفجر قد أوشك فهمس أنهم أولاد فى غاية الظرف والذكاء ، ثم أضاف وأكد : والفهم .

ونحن نصعد درجات السلم قال يا جابر . . لقد عرفتك جيداً من خلال أهلك ثم أضاف : لقد أحببتهم منذ العصور القديمة .

كاد الحصان أن يقضى على الملك فى قفزة رائعة من محمد حين دخلنا صرخ فريد : انهزمت . . لن أكمل الدور .

أصر محمد على النقلة الأخيرة ، فقال فريد : ربما لو نقلتها لا نجد "جميل : إنه كالخضر يا بنى .

وجلسنا و"جميل" لا يكف عن الكلام ، شديد الحيوية ، كأنه يبدأ حياته تواً يسأل ويجيب ويفكر ولا أعرف كيف لم نتكلم فى القصص والشعر ، وما الذى أقحم "روجرز" ومبادرته واستياء "جميل الشديد من هذه المبادرة .

ثم رأيته كأنه شيخ قديم ، التف فى عباءته ، وقد أقعى فوق أعلى رف فى المكتبة وفجأة انجذبت إليه المصابيح وفى يده مسبحة طويلة طويلة من التواريخ : حتشبسوت وأحمس ومينا والقبط وعمر بن العاص ونابليون والجبرتى ومحمد على . . لا أعرف . . كنت مذهولاً ، فضمنى إليه بشدة وهو يقول : أن يونيو كان ثقيلاً وسوف نحمله فوق صدورنا طويلاً .

وجدته بجوارى شاباً نحيلاً يرتدى ملابساً خفيفة ، ليس فى معصمه ساعة يد ، وشعره الناعم لا يمشطه . أسقط فى يدى : أيمكن أن يكون فى العالم من يفرح بهذه الحياة بسبب وبدون سبب مثله ؟!

اختلف محمد معه ، وناقشه طويلاً ، ولم ينس محمد أن يستعرض كل ثقافته فى هذه الجلسة بينما فريد يستحسن كل ما يقوله جميل ، ويضيف أحياناً معلومة صغيرة ، ولما كان "جميل" ينظر لى لأبدى رأيى كنت لا أزيد عن تساؤل يتخلص فى : كيف ؟ ولماذا؟ ومتى ؟

وفجأة . . هتف : الشمس .

كأنه فوجأ بها للمرة الأولى فى حياته أنا كنت أتابع الضوء منذ بدأ يتسلل ويكسر ضوء النيون ومنذ فرش نور الشمس الحجرة . . هتف :

ما أجمل الشمس . . نهض وخلع قميصه وفتح الباب . . واجه الشرق تماماً - هكذا حجرتى تواجه الشرق ببابها ، تمطى فى الشمس ثم سحب الحصيرة وعليها نام . . تمدد عن آخره .

ورأيت فيما يرى النائم إنه يتحدى ضوء الشمس بعينيه الصغيرتين المحملقتين فى الشمس بلا توقف .

ذاك ما حدث فى المرة الأولى فى الحجرة التى فوق السطح ، ولم ينقطع الوصل إذا التقينا فى زورق بين ضفتى نهر النيل ، وكانت السماء مليئة بالسحب الكثيفة السوداء التى تنذر بمطر لن يتوقف. والبرد الشديد يرجف جسدى فيما هو يفكر ويتكلم ويسمع بعمق شديد .

حين دعانى لنزهة فى النيل وافقت لأننى أصبحت شغوفاً بهذا الكائن العجيب ، وانتهزت أول فرصة ظننتها بالصدفة لألبى دعوته ، استغربت حين لقيته وحين همس لى فى القارب إنها لم تكن صدفة ، إن ما حدث بالضبط أنه سأل "حسام" متى ستقابل "جابر" واتفقا على الموعد ، وعندما وجدت "حسام" فى المقهى ذات يوم جمعة بين حشد من كتابنا الكبار والصغار ، وكانوا يقهقهون بسخرية ويهمسون أحياناً بأخبار غريبة حكى ذو الشارب الكث واللحية والعصاة عن الجندى الذى قابل الرئيس عبد الناصر وقت كان يزور الجبهة فى ٢٤ يوليو ١٩٧٠ وسأله متى سنعبر القناة ياريس ومتى سنحرر الأرض ؟ كنت مندهشاً للسؤال . . وأى تحرير ! وهل هذه حقاً روح جنودنا فى الجبهة وكيف تسرب لهم إننا سنعبر ونحرر الأرض . . من سرب هذا الحلم المستحيل ! لحظتها وصل "جميل" واكتشفت أنه صديق الجميع سلم علىَّ بحرارة ، وبعد وقت طويل استأذن

ليمش ، فطلب "حسام" منى أن نمشى معاً قليلاً ، فى الشارع الجانبى قلت لجميل إننى آلبى دعوتك لنزهة فى النيل .

فى القارب اشتدت لسعات البرد ، ارتعشت ، خلع معطفه ، ودثرنى به تمايل القارب بشدة. هلعت، وتأكدت أن نـهايتى بعد قليل فى عمق هذا النهر الذى أحـبه وعضضت أصـبعى ندماً ، ولماذا لم نلتق فى مـقهى دافئ ونشرب الساخن ومن أفواهنا يطلع البخار محولاً المكان للحظة دافئة ! ومن سيخرجـنى من هذا القاع ومن سيعرفنى فى هذه العاصـمة ! وأمى !! ماذا ستفعل أمى ستموت من هول الصدمة وربما تدفن قلبى ، وبينما أتوه وسط هذه الدوامـة إذبه يقـول : نيكسـون يعلن تعـويض الأردن عن خسـائره العسكرية فى القـتال ضد المقاومـة الفلسطينية فأكـملت له فقط لأعلن عن وعى ولأخـفى أى رعب بداخلى من الموت غرقـا : منهم خمـسة ملـيون دولار معونة مالية ! ثم تمتمتُ : مؤامرة واضحة مال القارب بشدة أمسكت بكتف "جميل" خـوفاً فضحك وقال : لا تـخف . . القارب آآمن وسيلة انتقال منذ قدماء المصريين .

نظرت فى عينيه طويلاً وأردفت . وآآمن وسيلة أمان .

عقد حاجبيه وقـال : ماذا تقصد ؟ قلت يعنى . . أجمل مكان سرى فى العالم لرجل وأمرأة . .

ابتسم فأضفت ! فى بداية الحب الرومانسـية . . أما بعد ذلك فيكون مأساة ضـحك عالياً ، وقال : فى بعض الأفلام يضـعون الخطط العسكرية فى قارب أجبت : الفراعنة أنجزوا كل شئ .

أجاب : ولكن توت عنخ آمون : قتل ولم يعرف قتلته حتى الآن .

ثم أخذ يحدثنى عن المقاومة الفلسطينية وياسـر عرفات وفتح، فكلمته عن تجربة چيفارا ، فأحسست بالدفء يتسلل لجسدى .

وهكذا فى المقاهى الرخيصة جلسنا والمقـاهى السياحية والبرج وخلف الهرم وفى عشش فـقراء وصالونات أغنياء ، وكان أى مكـان يجمعنا لنبث

فيـه حبنا لوطننـا وآمالنا وطمـوحتنا فى تغـيير هذا الوطـن ليكون مختـلفاً ومغايراً وباتجـاه الاشتراكيـة التى كانت فى افواه الجميع مـن الرأسمالى إلى السـلـطوى إلى الحـالم إلى الممسـك برشـاش . ولكننا كنـا نمتلك رؤية مختلفة ، وكـان يحدثنى كمبعوث من الشـمس كأنه "اخناتون" وقد بعث من جديد بصورة مختلفة وأوجه عديدة ماكنت أعرف أن له أهل أو بيت أو أخـوات مـا كنت ، أظن أن له - مـثلنا - أم تنـتظره أو أب لا يكف عن النصائح أو حبيبة أو رغبة ، كان حلماً خالصاً متفرداً ، ولما سألته ذات مرة عن بيته وصفه لى بدقة متبدأ :

تركب اتوبيس ٦٢ ، وركبته ، ونزلتُ : أعـبر الشارع ، عبرته ، ثم اتجه للامام . . . امش فى مساحة رملية . . امش . . مشيت ومشيت ، كنا وقت الأصيل وأظننى سأصل فى الضوء الخـفيف وظللت أمشى ، تغوص قدمـاى فى الرمال ، تعلو الرمـال ، كثبـان . شهقت إذا رأيت من بعـيد الجبال ولماذا أخـاف . . . قال لى ثم تركب "تاكسى" عندمـا ترى جبلاً ، وقل له عـزبة الجنانين بعد الغـروب رأيت" "تاكـسى" رجوته أن يحـملنى رجوته أن يحملنى معه ألى أى مكان يشاء ، فقد بدأ الخوف يتسرب داخلى من وحشـة المكان ، وصمته القـاتل ، فركبت التـاكسى ، ثم رمى بى فى مكان مظلم تماماً ، وقال هذه عزبة الجنانين .

من بعيد ، فى مكان ارتباكى وخوفى رأيت مصبـاحاً صغيراً مضاءاً ، ربما مصبـاح عمود كهـرباء أو مصباح معلق فى بيت أو فـى شجرة ، لكنه صار هدفى وصرت أجـرى فى اتجاهه تعثرت فى الرمل فـوقعت ، نهضت وجريت باتجاه المصباح . بعد أمتار اكـتشفت أن جريدة "الهدف" قد وقعت منى ، لم أخاطر بالعودة هذه الأمتار لابحث عنها ، واصلت جرى ولهاثى اقتـربت كثيراً من المصـباح . . . تذكرت قال : بيت وحـيد . . رقم ٤٧! وقفت مـبهوتاً . . بـالفعل بيت وحيـد اقتربت حـملقت فى الرقم ٤٧! لا خلفه ولا جواره ولا أمامه بيت آخر كل النـوافذ مغلقة ، نافذة واحدة يشع

منها الضـوء هل من المعقول أن يسكن "جمـيل" وحده فى هذا المكان فى بيت وحيد ! .

دققـــت على الباب دقـتين ثم دقة فدقـتين - هكذا قال لى - انـفتح الباب ، فطالعـتنى سيـدة عجوز لهـا ملامح الأم والمربيـة وصاحبـة البيت والخادمة ؛ قلت وأنا أبلع ريقى وبصعوبة بالغة جميل " . . موجود ؟

ابتســـمتُ وقالت : طبعـا يا بنى ، ثم حملقت فى وجـهى وقـالت تسأل : ألست "حسان ؟

ابتـسمتُ وبفـرح . . نعم نعم . شـدتنى من يدى فدخلت ووجـدته جـالسـاً بين حـشـد من الـناس والتـاريـخ . لمحت بينهم مـــاركس و "دوستـويفسكى" وطه حسين وبول ايلوار وانجلز ولينين وفـلاحين دنشواى وهدى شعراوى وطلاب سقطوا فى النيل أثناء المظاهرات وشـعراء مجهولين وسيـد درويـش ولوركـا وجـيفـارا وخميــس وبقرى وشـهدى الـفلاح الفصيح و . .

تنحنحت حتى أدخل فسكت الجمـيع وسكن الجميع سكوناً نظروا إلىَّ فسقطت على ركبتى اتفـحصهم ، فيما كان "جميل" بينهم مـحتضنا كتاباً ضخماً ، شعرت بسخونة شديدة وعرق غزير على وجهى وكاد يغمى علىَّ فرمى كتابه الضخم تلقفنى بيديه . ثم وجدتنى ممدداً على السرير ملفوفاً فى بطانية ، والسيدة العــجوز تقدم لى الشـــاى بالنعناع و "جميل " إقترب وجهه منى هامساً : يبدو أنك أرهقت حتى وصلت !

سكت قليلاً ثم تمتم : لكـنى أعرف إنك ستصل ولا أعـرف بعد كم من الأيام رجعت لحجرتى التى فوق السطح .

- ٤ -

توحة ... ليست مجرد رائحة كما توهمت .

دفعها حرارة الجو المرتفعة والصهد وفورة الجسد إلى أن تلج هذه الحجرة حيث من يدهشها بكلام لا تفهمه لتفتح له نوافذ الضوء هكذا قالت بعد سنوات .

وكنت قد فتحت الباب فوجدتها ممددة على السرير بقميص نومها الداخلى الأسود الشفاف والجورب الناعم الأسود الشفاف ، والحذاء مازال فى قدميها بقعة ضوء بحجم الشمس من لحم حى مجدول بفتنة ونداء ، وطار النمش من وجهها الأبيض نجوماً تملأ سماء الحجرة وحطت واحدة على جبينى فلسعتنى ، ساخت روحى ، لم تنهض ، رمشت باهدابها ترد ارتباكى وعطر يفوح له رائحة الياسمين ، ابديت دهشتى وبلعت ريقى ، للنهدين تحفز واشتهاء وبهجة ، لفحت وجهى سخونة ، مددت ذراعى الذى ارتعش لتنهض فلم تنهض .

هاهى بعد أن نظفت الحجرة ورتبت الكتب وابعدت الكتاب الذى يحمل صورة لينين ووضعت فوقه مجلة على غلافها سعاد حسنى ، بجمال آخاذ ، ولمعت زجاج النافذة ، وعدلت وضع نفرتينى انتظرتنى الساعات الطوال هكذا قالت بعد سنوات .

حين هممت أن أسألها لم تنتظر الحروف لتخرج من حلقى الجاف ، شدتنى إليها فانفلتُ واهمتنى ، نامت على صدرى ، نفذت رائحة الأنثى وانحسر القميص ، علقت مشدات الصدر فوق صورة جيفارا سحقتنى بنهديها وكان تعرفى الأول بطراوة لها غموض وتفجر فنهضت مذعوراً .

الباب بدون مفتاح والسطح على السماء ودرجات السلم لا يحرسها كلاب وأصحابى ليس لهم مواعيد ، وهى العريانة !! كنت مرتعداً رجوتها

أن ترتدى فستانها فـأصرت أن أخلع عن رجليـها جوربهـا الناعم الأسود الشفـيف ركزت على ركبـتى وعلى مهل خلعت عنها الجـورب فيمـا تنفذ رائحة لا يمكن مقاومتها .

- ٥ -

أمي تحكي عن الموتى وتروي بدموعها المقابر

"فقدت الجمهورية العربية المتحدة ، وفقدت الأمة العربية ، وفقدت الإنسانية كلها رجلاً من أغلى الرجال "

هكذا اقتحمت اللحظة المفاجئة حياتنا ، وكنا جالسين نتبادل أطراف الحديث ، وكنت ثائراً لحد غير معقول لذبح الفليسطينيين فى الأردن ، ولا أفهم معنى أن يجتمع كل الملوك والرؤساء العرب فى حضرة هذه المذبحة فقط لإدانة حكومة الأردن !

قال محمد : صراع . . مثل أى صراع .

فصرخت فى وجهه: كيف ؟ يواجه رجال المقاومة الفلسطينية جيشاً أردنياً !! وجلست وتمتمت ساخراً : إدانة !! :

وكان قلبى مازال دامياً من ضرب مدرسة بحر البقر فى إبريل الفائت عندما قتل ستة وأربعين طفلاً وطفلة إثر غارة استرائيلية على تلاميذ لم تكن أكبر أحلامهم تتجاوز حفظ جدول الضرب .

خرجتُ إلى الشرفة ، إلى الظلمة الواسعة وتركت حجرتى المعبأة بدخان السجائر ، وفريد انصرف تماماً لرسم وجها نسائياً رومانسياً.

آه يا سبتمبر البديع ، كم أحبك ،اعشق نسماتك الباردة الموقظة للروح ، وكم انتظرت سحبك البديعة المحملة برائحة الشتاء المقبل ، وذكريات الطفولة الفائتة تحت المطر. فى ظهيرة اليوم رأيت السحب تتهادى فى أشكالها المختلفة التى شكلت خيالى مذ كنت صغيراً ، ها هى السحب خيول وجمال ووجوه مفرطحة وطائرة تملأ السماء وامرأة عارية

نهـداها فى عين الشمس مـرحبـاً سبـتمـبر انتظرتك طويلاً ، حـتى أدخل حجرتى واستدفئ بكبتى وشايى ووحدتى التى أحبها. أحياناً صوت به هلع نادى علىّ :

-جابر . . جابر . . .

هرعت للداخل ، كانوا يحتضون المذياع البارد .

"واشجع الرجال وأخلص الرجال وهو الرئيس جمال عبد الناصر"

سكون سكون غير مـسبوق ، كدت أسمع دقـات قلوبنا وضعت يدى على فمى أكتـم هول المفاجأة ، هزتنى أنفاسى ، كـان صوت "السادات" نائب الرئيس حزيناً : "الذى جاد بأنفاسه الأخيرة فى الساعة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ ، الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ "

قعـدت فى مكانى لا أفكر بأى شئ محـدد . وفريد كان يـبحلق فى وجهى ، يبحث فى عـينيى عن رد فعل . لم استطع لم الأشياء وبعـثرتها أمامى مرة أخرى لأرى المشهد .

أغرورقت عينا "محمد" بالدموع ، مسح أنفه ، ثم ضرب رأسه بيده، قائلاً :

السادات سيصبح الرئيس !

لم يكن يعيننى اسم الرئيس القادم ، ولكن بالضـبط أشار محمد إلى لب الموضوع وإن اختلفنا فى الفهم .

بينما عاطف غمره فرح مدهش وهتف فجأة :

- أخيراً . . أخيراً تخلصنا من هذا التمثال الضخم .

نظرت باستغراب حقيقى ، لم أستطع أن أرد .

فأردف عاطف :

- واحد . . واحد فقط له كل السطوة والهيمنة !

غادرته الفرحة ، وقال بعصبية وهو يضرب على فخذيه :

- ستنفرج الدنيا يا جابر .

اسندت رأسى على يدى ، سمعت أحـدهم يبكى ، ينشج ، لم أشأ أن أعرفـه ، فكرت بالوطن . هل سنغـرق ؟ وفى أى بحر ؟ الامـيريالـية ستـفتـح جحرهـا لتبـتلعنا ، وسألت نفـسى ويبدو أن أحـدهم سمـعنى: والاشتراكـية ؟ عاودتنى لحظات التنحى ، يومهـا جرينا فى الشوارع ، لماذا لم نجر اليوم ، لمن نقـول لا ،وللموت كلمته الفاصلة فى السـاعـة السادسة والربع قال كلمته النهائية. نهنه فـريد فيما عاطف ينظر إلينا بدهشة وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة وتمتم :

- ألا تحلمون بالحرية !!

هاجمنى حنين نسمات سبتمبر الباردة فخرجت لملاذى شرفتى الواسعة المظلمة .

عتمة ، ثم ضـوء مصباح خافت فى البعيد ينيـر ويختفى . تنهدت ، كم من الزعماء مـاتوا وماتوا فى ظروف سيئة ، بل واعدمـوا ، واغتيلوا ، وفنانون ماتوا جوعا .

انحدرت دمعة دافئة إلى شفتى ، لحست طعم الملح .

فى صبـاحات الأعيـاد تأخذنى أمى من يدى لزيارة المقابر ، فـأمشى معها ، أشم رائحة العيد ، رغم رفضى لفكرة زيارة المقابر لكننى لا استطيع أن أرفض لأمى طلباً ، ارتدى ملابسى ولا بد أن تكون ملابساً جديدة حتى لا تزعل أمى ، تشدنى من يدى ، المقابر فى العيد مـزدحمة ، وجوه فرحة فى سمت حزين ، نقف أمام المقبرة ، تهمس :

- أقرأ الفاتحة .

فاقرأ ، ثم تقول :

- إقرأ الرحمن .

اقرأ . تخـرج من سيالة جيـب جلبابها النقود الـفضية توزعـها على العيـال الفقراء ذى الأقدام الحـافية والعيـون الكليلة الذين بين أياديهم وفى

صدورهم المصاحف مهترئة الأغلفة .

- رحمة ونور يا خالة .

تهمس :

- هذه مقبرة أخيك عثمان .

لم أره . مات قبل أن أولد ، المقبرة الوحيدة التى تجعلنى فى حالة حزن حقيقى . لا أتصور أن لى أخا فى التراب وأصبح تراباً . سمعت عنه كثيراً ، أحفظ حكاية موته ، لكننى أهمس لها مثل كل السنوات الماضية متسائلاً حتى تجيب ؟

- كيف مات يا أمى ؟

تقعد ، تسند رأسها للمقبرة ، وتنهمر الدموع من عينيها ، تنادى على "عثمان" بصوت خفيض كأنها توقظه من نومه وتخاف أن تزعجه :

- عثمان . . .

ولا يرد ، فتنادى بصوت أعلى قليلاً

- عثمان . .

ثم تنظر لى بعينين غائمتين .

- كان يذهب للمدرسة صبياً ، مكرهاً كان يذهب للمدرسة ، ينهض بعد أن ينشف ريقى ، يكون عمر ارتدى ملابسه وجهز حقيبته القماش ، ووقف على عتبة الباب ينتظره عثمان يكره المدرسة والمدرسين ويرفس الكتب ويقول أف ، ويبرطم يمشى مبطئا خلف عمر ، وإذا ناداه "عمر " أسرع يا عثمان ، يتركه عثمان ويرجع عصبياً يطوح الحقيبة ، يزعق : كيف يقول لى أسرع !!؟ يخلع الصندل من قدميه ، لن أذهب للمدرسة هكذا

كان يقول .

تبص فى عينيى ، تزم ابتسامة على جانب فمها ، تردف :

- لكنه كـان حبوب الوراقـة ، يمر على أى دكان فـيستـضيـفه صاحب الدكان ليسـمع كلامه الحلو ، تشده البنات خلف أبواب الدور ، بنت تقـبله وبنت تقرصـه وكلهن يتـعجبن من شـفتـيه الحمـراوتين و تقعـده " أم الرزق " فى دكانها الصـغيـر الغلبان وتعطيـه "ساندوتش "الطعـمـية ، يأكله ثم يحكى لهـا حكاية وهميـة عن زوجها الذى تركـها ولم يرّجع . يقتـرب من أذنها ويقول لهـا إنه رآه يعمل فى شونة الـقطن ممسكاً بعصا خـيزران والخواجة مـبسوط منه ، تعرف إنه يخدعـها ، ولكنها تعطى له "سندوتش" فولاً لتسأله وكيف كـان وجهه يقول كالفل وأبيض وأحمر وسمين . . لقد استرد صحته يا أم الرزق .

وأنا أعرف بقية الحكاية ، فزوج "ام الرزق " كان مسلولاً ، ذات ليلة ظل يبصق دماً ، وفـى الصباح لف صدره بجلباب ثقـيل من جلابيب "أم الرزق" وهز أم الرزق وهى نائمـة وقال بصعـوبة لها وهى نصف نـائمة أنا ذاهب للمستشفى . وجرى لم تره بعدها أبداً . وتقول أم الرزق - وإن كان لم يرها أحد - إنهـا ظلت تجرى خلفه وتنادى لكنـها أبداً لم تلحق به ولم تجده فى المستشفى . ولم تره بعدها . هكذا يحكى أبى .

بينما أمى تصر وهى تتحسس جدار المقبرة :

- كان فى عثمان رحمه الله شئ لله ، لابد أنه رآه . . ذات مرة طلع لى حتى السطح وقـال أنه رأى زوج أم الرزق خلف سينما الوطنية . . كلنه يا بنى وبعـد ثلاثة أيام أكد لى أنه رآه فى جنينة الصهاريج يلتهم حمامة مشوية .

تبص للمقبرة :

الله يرحمك يا عثمان . .

لم يترك "سيد" أبداً " كان ممسكاً بذيل جلبابة فى السلخانة .

ومع الصحاب وعلى المقهى .

ستحكى الآن حكاية مقهى الششتاوى .

- ولا ننسى مقهى الششتاوى . . كانت ليلة . .

ذات صيف وكان جالساً على الكرسى لا يبين ، وكان سيد جالساً واضعاً الطربوش فوق الترابيزة ويشرب الشاى وعثمان يأكل الفول السودانى ، وإذا بعساكر الحكومة تهجم على المقهى وتقبض على الجالسين ، فقفز عثمان على الترابيزة ورفع اصبعه فى وجه العسكرى وشخط اترك أبى يا حرامى ، فانطلق الضابط ضاحكاً فضحك كل العساكر وهرب من هرب وفر من فر ، والضابط سأل سيد : أهذا ابنك . . قال سيد : نعم . قال الضابط خذه وامش .

شاله أبوك ، وعبر جسر الدلتا ، وجاء ضاحكاً يحكى ونحن جالسون حول " المنقد "نشوى" أبو فرو" .

ثم تتنهد بعمق :

وذات يوم رجع من المدرسة قال تعبان ، قلنا حجة ليهرب من المدرسة قال تعبان ، قلنا نم .. تحسست جبهته كان جسده دافئاً ، دخل ونام ولم يشرب عصير الليمون ، لم يمر على الدكاكين ، لم تشده البنات خلف الأبواب ، لم تره أم الرزق ولا أصحاب سيد فى المقهى ، لم يذهب إلى جدته فهيمة

ليجنها من تصرفاته المضحكة ، فقط دخل ونام .

يتحشرج منها الصوت :

في الليل ازدادت حرارته ، شهق سيد الولد تعبان . . في الفجر كان نـارا موقـدة . . في الصبـاح فقـد النطق تسكت طويلاً لا أحثها على الكلام ، اخـتنقت بالدموع الآن ، تجاهد : في اليوم الثالث مات . . . مـات يا جابر . . خرجت الخشـبة من البيت ولا أحد يصدق ، وضعنا طربوشه الأحـمر الداكن فوق الخشبة ، وكأنه العريس .

ثم تهتز للأمام والخلف ، تردد :

يا عريس يا عريس .

تميل برأسها على المقبرة ، منهارة تماماً ، تهمس منادية :

عثمان . . يا عثمان

تلـف بي المقابر ، تمشي فأمـشي خلفها ،أتبعهـا في الزحام حتى لا أتوه ، تضع الخضرة في عين كل مقبرة ، وترش الماء في كل مدخل، رأيت الزهور تنبت في مقـابرنا على كل موتانا ، وقطع الرخام التي تحـمل اسماء مـوتانا كانت تلمـعـها بمنديلهـا . وحين أتعب أجلس قليـلاً بين الخضـرة والزهور اتأمل الحـياة والآخرة وحـدي ، كنت آتمنى لو مت في حـياة أمي لتعـتني بي هذه العناية وتضع على قـبري خـضرة وترش الماء وتقـرأ سورة الرحمن التـي تعشقـها ، كانت ولأنـني الوحيد حـتى من بين البنات الذي يطيعها ويسمع لها كانت تصل بيني وبينهم .

- جابر .

نادت عليَّ وكنت قد سرحت بعيداً ، وأكملت :

- تعال يا جابر . . مقبرة جدتك ، هل نسيت ؟

أجرى إليها :

أقف . . أحنى رأسي ، وفى خشوع أقرأ الفاتحة ، فتقول لتذكرنى :

- أقرأ الرحمن .

فاقرأ الرحمن . .

- جدتك غالية عليَّ

تجلس القرفصاء

تردد بوله :

- يا حبيبتى يا أمى . .

ثم معا نقعد على الأرض . يلف الأولاد والعجائز والبنات حولنا ، تعطيهم النقود والقرص وابتسامتها الطيبة ، وتسألهم عن آبائهم ، يعرفونها ، يلتفون حولها ، كنت أظن أنهم يستغلونها ويضحكون عليها من أجل نقودها ، لكن فيما بعد بسنوات طويلة ، رأيتهم بعينى يبكون بحرقة لافتقادها ، تهز رأسها أسفا ، وهى تحكى ، كأنما ليس لى :

- عشت عمرى محرومة منها ومن حنانها .

ثم تنظر لى لتؤكد :

- البنت يا بنى تحتاج حنان الأم أكثر من الولد ، ولأن أبى مات وأنا صغيرة عندما شده سير عجلة وابور الطحين ومزقه واندلح دمه فى الدقيق ، جمعوا اشلاءه بصعوبة ودفنوه هناك فى

طنطا ، ولما كبرت سألت أمي عن مقـبرته فلم تعرفها . . دفنوه
في مقـابر الصدقة . . يا قلـبي عليه . . لا أحد يحط الخـضرة
على مقبرته ولا أحد يقرأ سورة الرحمن .
ولا يجلس أحد ليبكيه . . عيني عليك يا با . . يا شناوي .
أنظر إليها بإعـجاب ودهشة واستغـراب ، وأسأل نفسي ، لماذا
تبكي جميلة دائماً ولماذا يذبحها سكين الشجن !؟
تمسح أنفها في ذيل طرحتها السوداء الشفيفة وتكمل - كنت عن يقين
أعرف أنها تحكي عليٍ لأدون ما تحكيه ، فانصبت باهتمام :
- كبـرت ، فتـزوجت أمي جـدتك من هذا الرجل ابن الكلب
الأســود الوجـه الذي تطق عيناه بالشرر ، طـردني من حضن
أمي ، فأخذني خالي "عيسى" وعشت مع خالتك فهيمة .
رمقتني وأنا ابتسم ، وابتسمـت لأن اسم جدتي لأبي هو فهيمة واسم
خالتي فهـيمة واختي فـهيمة وجدة جـدتي فهيمـة وابنة عمتي فهـيمة - -
تربيت في بيت خالي عيسى ، وكنت أتسلل لبيت أمي ، وكنت
أنا الابنة أريد الاطمـئنان على أمي ، تحتـضني وهي تبكي ولا
تردد غير يا جميلة يا بنتي . . يابنتي يا جميلة .
ذات مـرة رجع الأسـود ووجـدني في البـيت ، دفـعني داخل
الحجرة ، قفل الباب ، ارتج قلبي ، مد يده وامسك بحبل ، لم
يضـربني ، لكنه لف الحبل عـلى يده ، قال لو رأيتك هنا بعـد
ذلك سألف الحـبل على رقبتك ثم فتح البـاب وطرتٌ من فوق
الأرض ، سمعت صوت أمي كأنه يأتي من بئر عميقة من فزعي
لم أبص على أمي وظلـــلت أجـري أجري أجري حـتي غيط
خالي .
تعض على شفتها السفلى :

- الله ينتقم منه .

ثم تهرش في رأسها - كأنها تنبش فى الذكريات . .

وكبرتُ وكبرت وكبرتْ وتزوجت سيد . وابن الكلب الأسود ربطها بالحبل يوم فرحى، سيد يكرهه ، قال لى أن بإمكانه أن يمسك الأسود من قفاه ويمسح به شوارع الوراقة ، وقال أن عمك كامل يستطيع أن يعلقه على دكانه مثل ذبيحة ، رجوته ألا يفعل خوفاً على أمى . . ولما صارت مشلولة تحتاج من يشيلها ومن يحطها رفسها ورماها خارج الدار مثل كومة من عظام ، جرى سيد وحملها بين ذراعيه ، وأجلسها تحت شجرة "البنسيانا" وجلس بجوارها يربت عليها ويقرأ لها القرآن ثم أخرج من جيبه ورقة منقوشة باللون الأحمر مسح بالورقة جبهتها وجرى للنهر وطوح بالوراقة وعندما رجع تمتم لى لن ترجع عديله للأسود ولن تدخل له دار ، إما نكفنها نحن أو تكفننا هى . . وفى كوب الشاى أذاب لها الحلاوة الطحينية ، وحملتها وأختك عليه وفهيمة وحممناها ، وعليه ، مشطت شعرها وبالمشط نفضت عن شعرها القمل الذى ملأ جلبابها وتناثر علينا وقتلناه بالجاز ، ليلتها نامت من بعد صلاة المغرب حتى صلاة ظهر اليوم الثانى وظلت فى بيتنا تدعو لسيد كلما راح وجاء حتى ماتت .

أذكر يوم ماتت ، كنت صغيراً ، ومفعوصاً فى حضن أختى ، وشق سكون الصباح الباكر صرخة فزعة وصوت عال ينوح ، قفزت من مكانى أنا وهناء إلى حيث ترقد جدتى ، طللت عليها ، كانت الرجلين مثنيتين متيبستين ، فردهما أبى بصعوبة ، أمرنا أبى أنا وهناء أن نذهب لعم على

الفار " الدقَّان وأن نخبره فقط أن جدتى عديلة ماتت وهو سيتصرف جريت مع هناء لم نتوقف عن الجرى إلا أمام بيت "على الفار" ودفنت جدتى بعد صلاة الظهر .

إلى أن نصل إلى قبر عمتى "عظيمة" تلك التى فتنت أهل الوراقة ومن أجلها قامت المعارك بين الرجال حتى تزوجها" الشرقاوى" ورأيتها وهى فى قوتها وجمالها و. . . أشارت أمى بألم . . . . . عمتك . . . . دائماً يبدو قبرها مهجوراً ، زرعه ناشف جلست فوق التراب الناعم ستبدأ أمى بقولها لم يكن أحد مثلها فى العز والجاه .-

فاجأتنى أمى بقولها :-

لم ير أحد تعاسة مثلها . . عظيمة التعيسة
حلمت بالذهب ونالته وحلمت بالبيت فصارت تمتلك بيتين وحجت ثلاث مرات ، ورسم النقاش على بيتها البواخر بلون بنى والجمل بلون أخضر والكعبة بلون أسمر وهلال بلون أحمر ، وكتب لها النقاش بخط كان يقف الأفندية أمامه مبهورين :حج مبرور وذنب مغفور . والحق يقال حين رجعت من الحجاز أعطتنى جلبابين ولأبيك جلباباً ومسبحة ولكل عيل منكم جلباباً وتلفيحة . . يرحمها الله .
ولما مات زوج عمتك" الشرقاوى" ظنت إنها امتلكت الدنيا والدكاكين والبيتين .

ثم نهضت أمى مسرعة ونادت بأعلى صوت لها :

- يا بدير . . يا بدير . .

فجاء بدير السقا حاملاً على ظهره قربة الماء ، رحب بأمى ، ومكان

مـا تقول كـان يرش الماء وهو يدعو لأمى بطـول العمـر فلولاها لا نقلبت المقابر إلى خرابة . نظفت ظهر المقـبرة ، اشارت لى أن أجلس فجلست ، ثم تنهدت وهى تهم بالحكى :

- كانت تمشى فى الشـارع مثل ملكة ببشـرتها البيـضاء ورقبتـها الطويلة التى يلفها الذهب وذراعيها المكسوين. بالذهب ، ورغم ابناءها الكبارفقد تمناهـا كل رجال الوراقة ، ليس فقط من أجل ما تمتلكه ولكن لجمالها الأخاذ ، لما كـانت الدنيا فانية فقد التف حولها ابنها الأكبر "زكى" وقال ما قال فى حب الأم ورغبته هو الكبير أن يحافظ عليها وعلى مالها ومن كل طامع فيها ، ولأنها تفـضله عن باقى أخواته فـقد أعطـته المسكينة كل مـا تملك من دكاكين وبيتين بالبـيع والعقد والختم والبصـمة وأصبح هو المعلم والكل فى الكل ، وسمـعت فيما سمـعت من المعلم رفاعى أن زوج زكى أرادت هى الأخـرى أن تحفظ مـاله وتحافظ عليـه من الطامعين فقد كتب لهـا زكى الدكاكين والبيتين والذهب ، حتى الذهب الذى فى ذراع عظيمـة . لكن عظيمـة لم تصدق المعلم رفاعى ، فـرفعت الحـذاء فى وجه المعلم ، فـأسقط فى يده ، فدفـعها دفـعةً قـوية فارتطمت بالأرض وتجـمع الأسطى الحلاق والجـزار وصاحـب البقـالة والخـردواتى والفكهـانى والنسـوان وحملوها لا هى حية ولا ميتة ، وقبل أن يكشف عليها الطبيب كانت قد عرفت الحقـيقة من زوج زكى التى قالت أمام الناس ، ومـاذا فى هذا ؟ ألم يكتب الشـرقـاوى كل مـا يملك لزوجـه؟ وهكذا كـتب زكى كل ما يملك لزوجـة ، وضربت بيـدها على

صدرها بثقة ، فلم تقم "عظيمة" من مكانها السنوات الطوال ، مشلولة ، فقدت النطق ، ليس سوى عينين لا تدمعان إنما تطل منهما الحسرة والندم .

أعرف يا أمى . . أنا نفسى ساعدت فى حمل عمتى وهى المشلولة من بيتها إلى بيتنا ، بإشارتها فهموا أنها تريد بيت سيد ، وعندما وصلناها إلى بيتنا أشارت بأن تجلس بجوار شجرة البنسيانا وجلست ، تتطلع عيناها لزهور البنسيانا الحمراء ، وتتأملها طويلاً طويلاً ، لا تخفض عينها عن الزهور ، إلا حين تسقط رأسها على صدرها ، ثم راحت فى نوم عميق عميق ، ساعة المغيب حملها أبى حتى حجرة نومه ، مددها بجوار أمى ، فنامت عمتى أسبوعاً متواصلاً ليس سوى نبض خافت ونفس يتردد كطفلة مولودة توا

. يا للموت القاسى التافه .

كنت حين أرجع من المقابر من أمى آكل الكعك والحلوى والترمس والبليلة والفول السودانى ثم أرص كل أطفال البيت وأطفال الأقارب صفاً وأقف أضاحكهم وأعطيهم العيدية قرش صاغ واحد لاغير ، يضحكون بفرح ، كيف هربت هذه الفرحة من الوجوه ، أو كيف هربت عبد الناصر مرة أخرى ، هل أحببت وجهه أم بطولته التى كنا نحلم بها : رأيته ثلاث مرات الأولى كان نقطة صغيرة سمراء ، قمراً مدوراً أسمر بين الاف الجماهير التى تمسك بسيارته ، وكان يذوب بينها . فى المرة الثانية كان فى إحدى خطبه فى عيد العمال ، من بين السد البشرى والاف العساكر . استطعت بعد ساعات من الكفاح أن أتسلل داخل ملعب الكرة الذى خطب بداخله ،كان شامخاً قوياً فى المرة الثالثة خرجنا أنا ومحمد وفريد إلى

حدود المحلة حيث البعيد عن أى تجمع ، وقفنا وحدنا على الطوار وإذا بالسيارات تأتى ، كان فى سيارته المكشوفة ، ما أن أقبل حتى ارتجف قلبى ، لم أصدق أنا والزعيم وجها لوجه ، انطلقت حناجرنا تهتف فى لحظة واحدة : ناصر . . . ناصر . . . ناصر . .

تطلع إلينا ، وإلينا فقط لوح ، ولنا فقط ابتسم ، كنا على موعد فى لحظة تاريخية ، وعندما مرق موكب السيارات نزلت لمنتصف الشارع الخالى وقفت فى ذات المكان الذى عبرت فوقه سيارة الزعيم ، لم أصدق . . كان ناصر من لحظة واحدة . . لحظة ! .

فجأة سمعنا من الخارج أصوات صراخ وزعيق يختلط بالفزع والرعب دق قلبى بعنف وفتحت الباب وجريت . . خلفى جاء محمد وفريد قفزنا درجات السلم ، كان المشهد غائماً بالنسبة لى : زحمه ووجوه وهرولة ، هرعنا إلى مصدر الصراخ إلى أن وصلنا لحارة جانبية واقتحمنا الازدحام وكتلة الناس ، فوجدت "نبيل" قد تضرج فى دمه ، ولفظ نفسه الأخيرة ، الرأس مهمشة بعد ساعة "قال أخوه الأكبر"

- صرخ ولطم وقال لا يا ناصر لا تمت وحدك . . .

لا تتركنا.

ثم تماسك وأكمل :

- وصعد للسطح جرياً . . ثم . . ثم ألقى بنفسه ، ليموت .

نظرت لمحمد وهمست :

- الله يرحمك يا نبيل .

هز فريد رأسه بمعنى بالموضوع ، يسأل .

فقلت لفريد :

- نبيل لم يقرأ جريدة فى حياته .

ولفحنا برد ليس من شيـمة سبتمبر ، رجعنا بـتثاقل ، دخلنا البيت ، فى صدر الصالة جلس أبى ساندا رأسه بيديه ، وأمى نامت فى مكانها على الكرسى وتطوح رأسها للخلف ، وجرت إفراج إلىّ ، كانت الدموع تبلل وجهها ، سألتنى خائفة علىّ :

- أنت زعلان !؟

هززت رأسى ، طبطبت عليها .

صعدنا للحجرة ، عاطف كان ممدداً عـلى الكنبة باسترخاء ، وشعرت بنوة تطيح بنا . . من الداخل .

- ٦ -

كيف همست لنا ، ثم تلاشت ؟

الصباحات تتوالى ، تشرق الشموس الصغيرة التى نحتمى فى دفئها ، تنادينا الغيطان البعيدة ، والأصوات النائية بعضها به فزع وبعضها بها ود وحنان ورجاء ، قالت سامية : إنها طيور الحقول ، اعجبنى الاسم ، قلت يصلح عنوانا لقصيدة ، ضحكت وقالت لا تقل لفريد .

فى الأمسيات يمر " محمد " علىّ حاملاً كل أحلامه فى كيس صغير ، بالكيس جوافة وبقسماط ، يقدمه مترددا : ربما يجوع أحدنا ، أحفظه فى ثلاجة أخى حتى الصباح ، وذات ليلة وجدت الكيس ممتلئا ، بل وبه تفاحة حمراء لامعة ؛ فحق لى الاندهاش ، جلس محمد على الكرسى وشخبط بالقلم على ورقة بيضاء ، ثم كز على شفته السفلى ، وأخبرنى ، ولم اخطئ حمرة الخجل على وجهه أنه سيدعو " اسهار " على وليمة تفاحة حمراء لامعة فى قلب الغيطان ، واحتضن " عيون الزا " لاراجون ، وقال بعشق : لون التفاح الأحمر ينحنى لحمرة شفتيها ، وقلب التفاح الأبيض يخجل من بياض وجهها الرائع ، وكانت أمنيته التى ظل طول الليل يحدثنى عنها أن يقبل لون التفاح ويحتفظ برائحته للأبد .

فى كل ليلة يترك الكيس لتضيف أمى إليه فى الصباح ساندوتيشات اللحم ، والطماطم والزيتون الأخضر ، صباحات تتوالى ورغم التكرار وذات موقف الأتوبيس وذات تكشيرة " عم حسن " السائق ، وقلق "كامل" المشرف على فريق التشغيل الطلابى ، لكن الملل لم يقربه أبدا ، وتظل اللهفة تسبقنا إلى هناك ، هاهن قادمات ضاحكات فرحات قابضات على الدنيا بل ويجرجرنها خلفهن بمرح وطموح بلا حدود ، ذات المشهد ولكن لا ذات الملابس أو الضحكات أو الوان الشفاة أو تسريحة الشعر

أو رائحة العطر ، يقف مـحمد وفريد وعـاطف والآخرون فى انتظارهن ، فريد ينحنى بإعجاب لكل واحدة منهن ، سـألتنى سامية : فريد يحب من ؟ ، دهشتُ من سؤالهـا الساذج ، ففريد يحب الجمـيع بقلب واحد بذات الدرجة والوله . يسكنن قصائـده وأبيـاتهـا ، ويروح يرقـص ويغنى كفتى مـدلل بين حشـد منهن ، ولا تفـارقهن الابتـسامـة أو الفرح إلا بعـد أن يودعهن فى المساء ، .

فى الصـباح أجلس فى الأتوبيس ، لأشـاهد انحناءات فريد وارتـباك محـمد الذى تكاد عنيـاه تقفـزان من محـجريهـما فى انتظار " اسـهار " وعاطف الذى يفتح جريدة الأهرام ويطالع أخبار السادات بشغف ، ثم يقرأ حظه اليـوم ، ويزمجر عـم حسن وبالاتوبيس ينطلق إلى هناك إلـى القرى التى سمعنا عنها كثيرا لكننا لم نرها حقا إلا الآن .

نترك خـلفنا شوارع المحلة المزدحـمة بالعـمال القرويين والـفلاحين ، والهـامشـيين ، والأعيـان ، نترك الشـوارع التى تختلط فـيهـا السيـارات بالدراجات بالحمير ، والجلاليب بالفساتين الطويلة والقصيرة جدا والقمصان والبنطلونات ، إلى قرية وقرية وقرية ، إلى أن تستقبلنا هذه الخضرة البهيجة لنا على الأقل ؛ فأنا يسـحرنى منظر الحقول مهـما كان محصـولها واعشق شكل الساقية مهما كان تخلفها ، والشادوف والبهائم ، والولد الذى يركب الحـمـار مع أن الولـد فـقـير ومـعـضم وحافى القـدمين ، وجلبـابه أزرق وخفيف ، لكننى أحب هذه القـرى حتى فقرها ودخانهـا ولاتبرمنى رائحة الجنيز ، ولارائحة الـقش فى الصيف ، أحب الترع الضيـقة وأجرى خلف الضفادع ، وتبهرنى طيور " أبو قردان " مثل لوحات " بيكاسو " ، انظر يا فريد إنها نتف بيضاء تحط فى الأخضر بنعومة أحبها ، يصرخ فىّ فريد : أكتب هذا ، لكنـنى أخذل أحلام فـريد وأمشى المسافـات واختـبئى خلف شجرة ، لأرى " الغراب وهو يظلع فى كـبرياء بلون أسود وقور ، واكتم اعجابى بهذا الطائر المنبوذ بلا سبب فى كل قصص الأطفال .

عندمـا يتـوقـف الاتوبيس يتجـمع حولنا العـيال والنسـاء والرجال وشيخ الـبلد والخفـر وربما العمـدة ، يتقدم " كـامل " ويقدم كـل أوراقه المعـتمـدة بالنسر الأزرق التى توضح انـنا طلاب الجامـعة نقـوم وبناءعلى تكليف من الدولة التى صار أسـمها جمـهورية مصر العربيـة بعد أن ودعنا الجمهورية العربية المتحدة فى سبتـمبر ، نقوم بتوعية الفلاحين بأهمية تنظيم النسل ومحو الأمية .

ننطلق فى الحوارى الضيـقة لندخل الدور الأكثر ضيقـا وهماً وفقرا ، نبدأ جمـاعات وننتهى أزواجا ، ولابد أن " محمـد " مع " إسهار " فى البعيـد ، كانت هى البرجوازية الكبيـرة يفرحها أن تتـفرج على العالم من خـلالنا ، لكنهـا تتـأفف من الدور والفـلاحـين وتصـرخ فـزعـا حـين يقـترب الحـمار أو يجرى باتجاهـها ذكر بط كبـير ، ومحمـد يدهشه هذا كطفل لأنه لم ير أبدا بمثل هذه الرهافة والبرجوازية بنتا ، كان يتأملها وهى تأكل ، لا تأكـل مـثلـنا ، هكذا همس لى ، فـمهـا الدقيق ، أصـابعهـا الدقيقـة ، والفلاحات يلتففن حولهـا يتأملنها ، يتشممن رائحـتها ، فكان يأخذها بعيدا بعيدا ربما إلى الأفق لترى المشهد كله راكعا يتأمل وجهها الذى لم يره من قبل !

وأنا وسامية ندخـل الدور بحذر ، وهى بخفة ظلها وروحهـا تختصر الوقت والمقـدمات وتقـدم لى الأسرة بـلا عناء، تجلس بين أهل الدار على نورج قديم ، حـصيرة ، كـرسى ، فيشـجعنى هذا كثـيرا وبسرعـة تصبح الألفة بداية حقيقة للحوار .

تحدثهن عن أهمـية حبوب منع الحمل أوالوسـائل الأخرى ، تكشف لهن وبقـسـوة الفقـر الذى يعـشن فـيه ، وتمديـدها بجرأة فى مـلابسـهن لتحـذرهن من أمراض جلدية ومن أنـوثة فقدنهـا ، لاتكف عن الكلام ، تسأل سـاخرة كيف تمشطـين شعرك وخـمسة عـيال يشدون ضـفائرك إلى الأرض ، كنت جالساً أحتسى الشاى فى الركن بجوار الفرن ، حين تنهدت

واحدة ونزعت عصبة رأسها الصفراء وقالت :

حقا يا ابنتى .. ولست غريبة .. فى الفجر أصحو ، ليصحو الرجل والعيال أحلب لبن الجاموسة .. الروث وبرد الزريبة يأكل أصابع قدمى ، أصعد للسطح ، أقلب " الجلة " الناشفة ، وانزل لأسحب البهائم من الزريبة ثم ألم " الجلة " الطرية الدافئة ما تزال فى الطست الكبير وأحملها إلى السطح ، وأقرصها وأبططها وانشرها للشمس ، وأنزل لأترب الزريبة وأجففها ، وأغسل يدى ، وأقشر البطاطس وأجهز الغداء وأحمى الفرن وأخبز العيش ، وأحمل كل شيئ فى " المشنة " على دماغى وأمشى للغيط .. الغيط قريب .. ساعة زمن ... "ولست غريبة ... أحس بوجع ظهرى ، أحط الأكل تحت الشجرة ، يأكل الرجل والعيال ، وفى المشنة آخذ بعض البطاطس أو الطماطم أو الباذنجان أىّ ما يكون فى الأرض وأرجع ، أ غسل الحلل النحاسية فى المرشح ثم املأ القلل من حنفيات المرشح واملأ الزير واكنس الدار، حتى يرجع الرجل بالبهائم ، اسحب البهائم إلى الزريبة ، أجهز العشاء ، ثم أشطف وجهى من عفرة النهار والغيط ، وأتمدد على السرير ، ولست غريبة .. تؤلمنى مفاصلى ورقبتى وظهرى ، ويأتى زوجى بعد أن يدخن "الجوزة" ويركنها بجوار الباب ، يتمدد قليلاً ثم يخلع جلبابه وسروا له ويصحننى تحته ، وأنا لا أقوى على التنفس ، هو يرفع ملابسى ، ويلهث هو ، يهزنى هزاً ، ولكن ماذا يا ابنتى يمكننى أن أفعل، لا أدرى بنفسى إلا حين يؤذن للفجر ، فأنهض لأحلب اللبن من الجاموسة وأصعد للسطح واسحب البهائم من الزريبة ..

تهمس سامية فى أذنى ونحن ملتصقان نطل على خضرة داكنة :

– ويأتى العيل بعد تسعة شهور ، وبعد تسعة شهور أخرى يأتى العيل الآخر ، بلا راحة ولا فرحة ..

ثم بأسى تتمتم :

– دون حتى أن تفرح المرأة بجسدها .

ومع رجال البيت والبيوت المجاورة أجلس أمام بيت فوق مصطبة ، ويبدأون حصارى بالأسئلة ابتداء من سؤال تقليدى يتردد دائما : هل سيسير السادات على طريق عبد الناصر ؟ واسئلة عن الحرب والجبهة ، ويبدو أنهم كانوا يقرأون الجرائد باهتمام بالغ لانتظارنا فى اليوم التالى ، فكانوا يتكلمون ويثيرون كل ما تثيره الجرائد الرسمية ، وعندما نتحدث ونتناقش فى المحصول والمبيدات والأجر والمصروفات والعيال ينقلب الحديث لأشجان حقيقية وهمّ لا ينقطع ، كنت أحدثهم عن الأرض وإنها أملنا الباقى ، وكيف نحمى أرضنا من المالك والاسرائيلى والدودة وصاحب رأس المال وصاحب السوق ، يتصنتون باهتمام ، وحين يقودنا الحديث عن الحرب يصرخ أحدهم : علىّ النعمة لن نحارب ولن نشوف لها حرب ، فيصرخ آخر أمامه سنحارب ونمسح اسرائيل من وجه الأرض ، وعندما يسألوننى أتعثر وأقول : لابد أن نحارب . . يا جماعة سنحارب حتى لو بعد سنوات وسنوات . . لا تبقى الأوضاع على ما هى أبدا .

ونخرج جميعا للوسعاية لنعلق الشاشة البيضاء فوق الحائط العالى ، يتجمع أهل القرية عيال ورجال وشباب وفتيات يجرون ليجلسون أرضا رافعين رؤوسهم لأعلى باتجاه الشاشة ، وكبار القرية يجلسون على دكة وكراسى يساهم بها من يطلون على الوسعاية وفى الخلف تزدحم السيدات العجائز والفتيات الجميلات ، ونحن طلاب التشغيل وخريجى الجامعات نقف على الأجانب ، ونشاهد بعضا من الأفلام القديمة المصرية ، وفى أيام قبل العرض نقدم القصائد وربما الأغانى ، يلقى فريد بعض أشعاره وكنت ألمح دهشةً فى بعض العيون لاستعصائهم على الفهم ، " وكامل " كان يلقى قصائد شعراء العامية المصرية الشهيرة فتجد تجاوبا مثيراً وحماساً وتعاطفاً وترديداً ، ونشعر بالهوة بين قصائدنا الحديثة والجمهور ، قلت لفريد : خلل ثقافى . . لأن هذا الجمهور نفسه هو حافظ التراث الشعبى

والمواويل ، مط شفته أسفا ، ويمكننا أن نقول دون قلق إنها : السياسة والأمية والاقتصاد والفوقية ، وكل شيئ ، لكن هذا لا يزيح المرارة التى فى حلوقنا .

فى الغروب عادة يبدأ العرض بنشيد " وطنى حبيبى الوطن الأكبر" وكان أهل القرية يصفقون بحماس عندما يظهر عبد الحليم حافظ أو شادية ، فيما نبدأ نحن بالانسحاب تدريجيا ، فبعد النشيد كانوا يعرضون أفلاما ليس لها أى علاقة بأى شيئ مثل : طاقية الاخفاء - التلميذة - الأنسة حنفى ، وتحدثت فى هذا طويلاً مع المسئولين الذين أصروا على أن هذا هو المتاح ، وقلت لمحمد أن هذا هو المخطط ، نظل طول اليوم نتحدث عن تنظيم النسل ، واسرائيل والفقر وعبد الناصر والسادات والأرض ثم يتم إزالة كل شيئ بأفلام ليس لها علاقة بأى موضوع وتمنيت لو امتلك آلة تصوير سينمائية ، التقط فريد الفكرة وآخذ يحلم لو نمتلك آلة تصوير . . . ماذا نصور ؟ قلت له نصور أفلاما تسجيلية عن . . عن الغجر مثلا . . هؤلاء الغجر الذين يقيمون فى جزء من المحلة له خصوصية شديدة ، نصور دورهم الطينية الضيقة الصغيرة ، عنزاتهم الراكضة بلا توقف ما بين جسر القطار والدور والجمال الباركة أبدا والكلاب التى نخشاها ، ووراكية النار ، والحمير وفقر يفرض نفسه على الوجوه والحياة وبؤس مقيم ، صاح فريد : أن ازياءهم المطرزة بدقة وبالوان سوداء وحمراء تستحق فلماً كاملاً ، قلت وما رأيك فى لقطات متتابعة لعمال الشركة الذين يخرجون من المصانع كموج بحر هادر فى لحظة واحدة ، وأثناء عبورهم الكوبرى السفلى هذا النفق الصغير كأنهم يخرجون من رحم وعيونهم الكابية وهرولتهم العجيبة ، قال محمد لا لا . . عمال النول . . أريدأن أصور قاعة النول الرطبة المظلمة وأتابع عامل النول الذى يصلى الفجر ويظل أمام النول حتى صلاة المغرب ، يعض محمد شفته ، يدعك أنفه ، يردف : فى ذلك اليوم الذى يبدأ من الفجر حتى الغروب يكون

العامل قد صنع متراً من القماش الألاجاء وقد خبت عينيه وتسلل السل إلى صـدره ، يسكت محـمد طويلاً ، ثم يكمـل بأسـى : فى الليل يكح . . فأضـفت : وفى طلعة النهـار يجرى ليـموت ربما قـبل أن يصل لمستـشفى الصدر ، يقول فـريد : هذه مشكلة اقتصادية وتـخلف وقهر . . ولكن مع من نكون ؟ ! عامل النول أم المكن الضخم الذى اكتسح أمامه العمال ليرمى بهم فى المقابر . . . المكن المنتج السخى القادر على الانجـاز .

فى الصباح التالى نهرع للاتوبيس تتنفس صبـحا جديدا ، تلتقى عيون البنات والشـبان ، نسـتدفئ بابتـسامـتهن الخجـول ، ونفرح ونلـتف حول "صفاء" البنت الطويلة مليحة الوجه ، البضة ، والتى يفاجأنى دائما جمال شعـرها الأسود الفـاحم الناعم المنسدل على كـتفيـها ، وهى تتـجاهل كل جمالها وتعاملنا كأم وهكذا قـررت هى ، لكننا لم نعرف موهبتها فى الغناء إلا فى ذلك اليـوم الذى دعونا فيـه " سعـيد " على أكلة فـسيخ فى ذات القرية حيث كان يعـمل خلف مكتب صغير فى حجرة صغـيرة حين رأيتها للوهلة الأولى ضاق صـدرى من رائحة الرطوبة من الجير المقشـر المتسـاقط من الجدران ، من شباكـها الواسع المؤطر والمتقاطعة فيـه أسيـاخ الحديـد ، من مكتب سعـيد المتواضع الصغـير والذى خـط فوقـه بعـض القصـص ، لكن ما أن ولجنا الحـجرة جمـيعا نحن والبنات واسـتقبلتنا ابتـسامة سعـيد وفرحـة حتى نسيت كل شئ ، جمـعنا " سعيـد" بود ، يطمئن على كل شخص منا باهتمـام وحنو ، يفرح بذى الصحة ويتـألم من شكل الضعيف يسأل بأسى : ألا تأكل يا خـال ؟ ! ، جرجرنا مكتب " سعيـد " ليتوسط الحجرة ، وجلسنا حوله كيفما اتفق ، بينما جلست صفاء وسامية وأخريات على حصيـرة وركنّ ظهورهن للحائط ، ومددن أرجلهن باستـرخاء وتحقق ملحوظ ، وجلست "إسهار " على كرسى " سعيد " وهو أفضل الكراسى وخلفها وقف محمد متوترا يحلق فى شعرها الناعم المصفر ، وسر لى فيما بعد إنه كان يشم رائحة عطرها طاغيا على رائحة الفسيخ ، حط " سعيد "

العيش فوق المكتب وجهز البصل والفسيخ والليمون ، قلت هذا رائع ولكننا فقط فى حاجة لأهل القرية حتى نتخلص على هذه الكمية ، ودخل شاب صغير حاملاً " طشتيه " مملوءه بالجوافة ، أفرغها بجوار " صفاء " التى صاحت لابد من غسلها ، قال " سعيد " ضاحكا : للأسف . . من أين ؟ لا توجد مواسير مياه ليس سوى الترعة ، هتف فريد ما أجمل الجوافة بالبلهارسيا ، ثم سكت فجأة متطلعا إلى ناحية الشباك ذى الأسياخ الحديد وتسمرت عيناه مما جعلنا نبص فى ذات الاتجاه وبعد لحظات صمت صرخ بدهشة وفرحة : "جميل" ، جريت إلى النافذة فوجدته وسمرته تنطق بسحرها ، وحماسه يسبقه ، وضحكته فرشت الدنيانورا ، جرى سعيد بلهفة وجبور ليستقبله وخلفه كنت وفريد ومحمد ، احتضنه سعيد قائلا بحماسه : سأريك الريف والقرى ، نقطع الغيطان . . وتحت قدميك سنضع كيزان الأذرة المشوية والخص والطماطم وسنابل القمح ونهديك أرغفة الخبز الساخنة ، وحولك سترقص العنزات والأوز والبط والحمام واليمام وفوق أعلى ناقة ستجلس لتشاهد الشمس عن قرب وسنأتى لك باللبن الطازج الدافئ فى الجرار . . فقط . . كن معنا بقية اليوم . وانطلقنا فى فرح ، قرأ " جميل " الدهشة فى عينيى فقال للجميع : جابر مندهشاً كيف وصلت لقريتكم تلك ، لأنه لا يعرف أن أم جابر تعرف أين يكون ومع من ، وحتى فيما يتكلم هذا الولد جابر .

فانطلق الجميع بالضحك ما عداى . . فمازلت مدهوشا من هذا الكائن، وبعد انقضاضنا على الفسيخ والبصل فى هرج وطفولة ، وقفت " صفاء " لتكشف موهبتها للمرة الأولى ، وقفت وأشارت أن نسكت ، فسكتنا ، ومن لا يسمح لهذا الجمال الدافئ الهادئ ؟ وإذ بها تغنى :

معقول يا محبوب ما يطل القمر

معقول . . .

ولم تنته إلا بعد أغنيات متتالية أدتها فى براعة وجدية وطرب ، وكان لابد أن نكمل جولتنا مع أهالى القرية فخرجنا ، وقفل " سعيد " الحجرة بالقفل على كا ما تبقى فيها من جلد فسيخ وبصل وخبز واعقاب سجائر ، وأنفاسنا التى بعثت فيها دفئا لم يحسه " سعيد " إلا بعد أن تركها ذات مرة وترك الوظيفة الحكومية بل والمحلة وخرج للقاهرة ولم يعد .

وللمرة الأولى أمسكت يد سامية فى حنو بادلتنى الضغط الخفيف على اليد ،ومازلت أحس ملمس اليد الدافئ الطرى المضطرب حتى اللحظة لامست كتفها فمستنى بصدرها فارتجفت فى حارة ضيقة ، ولما خرجنا للوسعاية لم نجد " جميل " وظللت مع سامية ابحث فى كل دار وحارة ومقهى ، ركبت الحمار ، وخلفى ركبت سامية تمسك كتفى فى خوف ، التف حولنا الأهالى بفرح بالغ وسعادة مفرطة ، يصفقون ويلوحون ، بينما استهجن هذا " كامل " وبشدة آخر الليل ، لكنهم كانوا يصفقون ومسرورين داخلنى شعور لم أقله لكامل يبدو أننا نعلب كل شيئ ونؤطره من وجهة نظرنا الضيقة جدا ، لأن بعض الصبية رقصوا أمام الحمار ، والعجائز لوحوا لنا من فوق الأسطح . ترجلنا . وقلت : نبحث عن جميل باتجاه الغيطان . فرأينا " محمد " وقد جلس القرفصاء أمام " اسهار " الجالسة على الذراع الخشبية للساقية فى مشهد رومانسى نراه كثيرا فى الأفلام العربية ، فإنطلقت الملعونة سامية بالضحك العالى خبيث المعنى فأحمر وجه " اسهار" احمرارا، وتلعثم " محمد " ومسح طرف أنفه ، وغابت " اسهار " عنا ثلاثة أيام حتى انتقلنا لقرية أخرى ثم ذهبت " صفاء " التى قالت إنها جرتها من شعرها لنرجع مرة أخرى ، وقاطعت " اسهار " " سامية " نهائيا ربما لهذه اللحظة . وتركنا اسهار ومحمد فى حمرة خجليهما التى بلا معنى ، وواصلنا بحثنا . هتفت : ها هو . جميل فى وسط الخضرة جالساً أرضا حوله جمع من الفلاحين ، اقتربنا بحذر ، رآنا وكأنه لم يرنا ، واصل حديثة عن تاريخ الإقطاع والاستغلال والقهر

ووضــع الفلاحــين بمصر ، وعنــدمـا جلست أرضا رفعنى ثم قال لهم :
إن سكان الصين وصل إلى ملايين مـلايين لأن المشكلة ليست فى النسل إنما
فى الفقـر والاقتصـاد والسيـاسة والانتاج . قـال هذا ببساطـة تأخذ شكل
الحواديت ، وتأخذ ألبـاب من يسمعون حتى أنهـم لم يتركوه إلا عند باب
الاتوبيس عندما كنا فى طريقنا للرجوع ، وودعوه بمظاهرة محبة ودود ولوح
لهـم بيـده وجلس بجـوار " صـفـاء" وقال لهـا : صوتـك جـميـل . .
لماذا لا تغنى " مصر يامه يا بهيه . .

وهذا كان سبب بحـثها عن أغانى الشيخ أمام وأحـمد فؤاد نجم وفؤاد
قاعـود . . وقـد جمعـت لهـا من عندى كل ما استـطعت من اداء الشيخ
إمام ، التى شكلت جزءا هاماً فى حـياة صفاء فيما بعـد كما شكلت جزءا
من حيـاة طلاب مصر آنذاك . وإن شكلت أشـرطة الشيخ إمام همـاً آخرا
عندما أصر زوجـها بعد سنوات أن ترمى هذه الشرائط من الشبـاك وأحضر
لهـا العديد من شـــرائط " وردة " وكانـت رفضتـهـا أول الأمـر ، ولكـن
فى طريقهـا ذات صيف لـ " مارقيـا " كانت تسمعـها باستمـتاع غريب ،
ولأنها لـم تكن تعرف " " مصريامه يا بهية " . . فقد شرع فريد فى الغناء
ونحن معه نصفق ونغنى بحماس :

" مصر يامه يا بهيه
يا أم طرحه وجلابيه
الزمن شاب . . وانت شابه
هوا رايح . . وانت جاية . .
ملاحينك . . . فلاحينك . .
فلاحينك . . . ملاحينك . . . ملاحينك .

وعندما اقـترحت على " كـامل " والآخرين أن يكون مـوضوعنا فى
القرية الجديدة محـو الأمية تحمسوا بشدة ، همس لى فـريد : هذا التشغيل
يبـدو أنه لعبـة يمارسـها التنـظيم الطليـعى السلطوى . فـقلت بهـدوء :

فليمارسها أى تنظيم . . المهم كيف نمارسها نحن . نظر لى بإعجاب وطبطب على كتفى ونهض ليجلس بجوار " خيرية " التى قرر أن يحبها ويتزوجها وينجب منها ولدا واحدا ويسمية " سميح القاسم " هكذا !

جلست سامية بجوارى وهمست : رواية ليس فى رصيف الأزهار من يجيب . . رواية رائعة . . اشكرك يا جابر . وحدثتها عن مالك حداد .

خرجنا من دار مظلمة . قلت لفريد : الأمية والبلهارسيا والفقر يقضون على وطننا بلا حروب أو ادعاءات .كانت سامية تسبقنى بخطوات، اسرعت خطاى وتركت فريد خلفى ولحقت بها . قالت أن القرى واحدة حتى الوجوه بنفس الجوع والفقر . نادى علىّ فريد بصوت به مفاجأة : جابر . . جابر .

حين التفت أشار وقبل أن يتكلم كنت رأيتها خلفه ، بوجهها الأحمر والنمش ، تميل برأسها على الجانب الأيمن وتعض شفتها السفلى ، لاحظت امتلاء جسدها ، استغربت لمجيئها للقرية ، سلمت عليها .

توحة . . قدمتها لسامية . تحرجت سامية واستأذنت ، أخذتُ " توحة " وانحرفنا فى حارة جانبية حيث الكلاب نائمة فى ظل الدور اتقاءاً للصهد الطالع من الأرض ، ورائحة الروث نفاذة ، كلمتها بسرعة عن إننا نوعى الناس خاصة السيدات بضرورة تنظيم النسل ، فابتهجت وقالت : نظموا النسل لكن إياكم والعلاقة الجنسية . . لا تنظموها . وكتمت ضحكة خبيثة ، لا أنكر انتشائى لرؤيتها ، تشيع حياة مختلفة لها نبض حار . قبضت على يدها ، دعبتنى هامسةُ وخشتنى . عضضت يدها فى الحارة الضيقة . استقبلنا أهل الدار بترحاب . حين تكلمنا ضحكوا جميعا وقال العجوز : لاينفع عندنا . . ابنى عريس ابن شهر . . يخلف الولد . . ثم يحدد . . ينظم . . يمنع . . . كما يشاء .

نطت " توحة " فرحا هاتفة : عريس وعروس . . لابد أن نبارك . وصعدت جريا على درجات السلم كطفلة ، جريت خلفها ، اردافها

تهتز فى ليونة ، ومرح . رحب العريس بنا ، واتسعت ابتسامة العروس كثيرا وكانت هى الخجلى فيما تداعبها " توحة " بالفاظ موحيه جنسياً ، أكلنا الكعك وشربنا الشاى ، ضاحكتهم توحة ، وسألت :

ألن نرى حجرة النوم ؟!

شدتها العروس وشدنى العريس ودخلنا حجرة النوم انعكس اللون البمبى فى عيوننا ساخناً ، شهقت " توحة " : يجنن .

سرير ودولاب ، ومرتبة ووسائد وأغطية لها لون بمبى ، وائحة عطر رخيص نفاذة ، على الحائط صورة راقصة على قماش مطرزة بالترتر ، وبجوارها صورة الزفاف والعروس والعريس فى غاية الخجل . ضحكنا كثيرا ، من تحت تناهت إلينا أصوات ميزتَ صوت " صفاء " وفريد ومحمد وإسهار وآخرين . سمعناهم ينادون العريس ليلقنونه الدرس الأول فى تنظيم النسل ، هبط العريس فى سعادة ليستقبلهم وخلفه هبطت العروس . وحدنا أصبحنا والسرير البمبى والرائحة الفجة الرخيصة . ضربت " توحة " الباب برجلها اليمنى ثم ارتمت على السرير ، نامت على ظهرها ، ثم مدت لى ذراعيها العريانين ، ولا أعرف متى فتحت الزرار العلوى لبلوزتها الصيفية ، ولا أعرف كيف اختفى العالم إلا نهديها ، اقتربت منها ثم انهلت على شفتيها تقبيلا ، ورهبة ما حدث ذات مرة فى الحجرة التى فوق السطح قد زال تماما ، ولجت لعالمها الدافئ البديع وأنا لا اعبأ حتى لو العالم كله تجمهر فى تلك الحجرة البمبى فى تلك اللحظة . وبجرأتها أخذتنى لوحشيتها ، وكانوا يصعدون درجات السلم فى هرج ومرج فنهضت مسرعا وجلستُ على الكرسى فيما جرت هى وفتحت الباب بهدوء بالغ . نظروا إلينا نظرات متضاربة ، تضاحكنا ، تبادل " محمد " النكات مع العريس ، ونصحه كطبيب صغير ببعض المشروبات ، ألقت العروس نظرة ضبطتها على السرير الذى تكرمشت ملاءته ، ونزلنا الدرجات ، وخرجنا للضوء الساطع . رمقتنى سامية ثم مشت بجوار فريد

همست " توحة " مداعبة : البمبى يجنن . وضحكت ، غير أن صوت " محمد " استوقفنا وهو يزعق وبعصبية لإسهار : فى داهية .

ذُهلنا جميعا ، بينما أسهار بصوت متوتر منفعل : لن ترونى بعد اليوم. ومشت ولم نرها بعد ذلك أبدا . ولا محمد رآها .

فى المساء لم يأت " محمد " .

فى الصباح التالى نزلت من الأتوبيس مع سامية أحكى لها عن "توحة" بعض الأكاذيب حتى لاتزعل ، فى حارة بالقرية كادت أن تبتسم عندما فاجأنا صراخ وعويل من حارة جانبية . استوقفت سيدة تجرى ، فسألتها ، فأجابت :

- العروس حُرقت . . بالأمس . . . كانت تشعل وابور الجاز هب فى وجهها ، ثم انفجر . . ويا عينى . . احترقت . .

الجنازة ستخرج حالاً .

لم يصعق أحد مثلى ، غامت الدنيا ، حل الوجوم على وجوهنا ، كل الطلاب تجمعوا بجوار الدار . شددت رجلى الثقيلتين ، دخلت الدار ، شممت رائحة العروس النفاذة مختلطة برائحة دخان .

جالسات فوق الفرن ، يتطوحن ، واحدة منكوشة الشعر ، تلطم، وتنوح :

" عينيك الوسيعة والكحل رباها
ياما خايفه لا الدود يهواها "

بحثت عن العريس وجدته منهاراً ، يهتز يميناً وشمالاً فى حسر كعجوز ، يخرج منه الصوت كالنساء :

" عينيك الوسيعة . . والكحل رباها . .
ياما خايف لا الدود يغواها "

أخذته فى حضنى ، وجاء الصوت العجوز يصرخ :

" عينيك الوسيعة . . والكحل رباك . .

ياما خايفه لا الدود يغواك "
رفع رأسه ، تحدث بدهشة وفزع واستغراب وحسرة :
- ورده يا ولاد .. والكحل رباها . . .
ورد . . آه . . شفتها يا أستاذ . .
كانت تضحك . .
" ياما خايفة لا الدود يغواها "
أكلت كعكها يا أستاذ . . ورده . .
يا ورده . . يا ورده . .
أجهشت بالبكاء

صلينا عليها فى المسجد الصغير ، امتلأ المسجد عن آخره ، وكانت جنازة قاسية الوطئة علينا ، تقدمنا المشهد ، والخشبة التى تحملها مزينة بالدانتيل وفستان أبيض معقود من الأمام وزهور تعتلى الخشبة .

عينيك الوسيعة . . والدود يغواها . .

فى لحظة الفراق الكبرى إنهار كثير منا من رهبة الموقف ، وسقطت سامية بجوار نخلة فى الخارج .

بعد ذلك بسنوات طويلة تسقطت أخبار العروس فعرفت إنه تزوج مرتين وخلف ست بنات وثلاثة أولاد ، منهم ولد ذهب لاسرائيل وقبض بالشيكل . يومها لم يتركنى فريد حتى تمددت على سريرى ، وهو خارج رمى بعقب سيجارته على السطح وقال بامتعاض :

- هذا حدث ميلودرامى .
تطلعت إليه هامساً :
- لكنه حدث
تركنى ومشى .

ليلتها لم يفارقنى وجه العروسه الطفل ، ولا ابتسامتها العذبة ، ولا عينيها الوسيعة ، ولا اللون البمبى الذى كان يلف حجرتها .

- ٨ -

لماذا احتفظ بقصص يحيى بين ملابسى وجلدى؟

فى هدأة الليل وحدى ، اسمع لفيزوز خفيفة كروح ، هامسة كعاشقة :

كنا نتلاقى بالعشيه
نجلس ع الجسر العتيق
ياسنينى إللى راح ترجعى لى
وردى لى ضحكاتى إللى راحو . .

تتسلل ، تسكن روحى . فيما قلبى مضطرب ونفسى متوترة ، سامية تحبنى فى حرية وتفكر بكل معتقدات أمها ، دعتنى لزيارتهم فى البيت ، ولما أبديت دهشتى محذرة قالت : لا . . أمى تريد رؤيتك وكذا أخواتى البنات .

صمتت وضحك وجهها كصبى وهى تقول : كلمتهن عنك كثيرا .

ترددت وقالت : يوم السبت أبى مسافر . . وأمى تود أن تراك .

نهضتُ ، أحاول أن أرمى قلقى بعيدا ، فتحت باب الشرفة ، لسعة برد ، لو يقلع البرد لنزلت الغيطان أهيم فى خضرتها الداكنة وأتمرغ فى أريجها وحدى !

حط التراب على "ا سينوس " فلمعتُ التمثال الأبيض اللامع ، قبل يوم السبت بيوم واحد طلبتساميه تأجيل الزيارة ! ولمست حماستها ، ورمت بين كلامها اسم توحة ، معبرة بوجه أحفظه عن استيائها . وأنا أحب سامية وأحب توحة ! كيف أحل هذا اللغز . وهل هذا لغز ، ألا ينبغى للرجل أن يحب اثنتين !

فى فمى شعرت مرارة ، فدخلت فيما مرق فأر على سور الشرفة

فأغلقت البـاب . فتحت مكتبـتى الصغيرة ، وأخـرجت قصصى القـصيرة المنشورة فى أهم ملحق أدبى ، فـردت الصفحات ، تأملت اسمى كـثيرا ، تفرجـت على الرسوم ، فى هذه القـصة رسم الفنان مـلامحى . فـرحان ومرتعب . إن هذه إلا البـداية ، للبدايات فرح وللطريق مخـاوفة ، نحمل الكتابـة على ظهورنا ونمضى فى طريق الآلام بطمـوح وفزع . چيـفارا . . هذا الوجه الجـميل أحيانا أشـعر بقسوته علىّ لماذا ؟ تطلعت إليـه برجاء أن يقول لى . رمـقنى بنظرة ساخـرة ، تلفتُ فوجدت " فـان جوخ " يعطى أذنه لصديقـه " جوجان " فى رضا تام . فزعت ومـسحت الدم من على يدى . كوم من الكتب السياسية والاقتصادية والنظريات والأفكار والتجارب والتصورات والأناشيد .

سخر منى " محمد " ذات اليوم وقال : لا يمكن تطبيق نظرية واحدة على شعوب متعددة . رددت عليـه : ولكن شعوب متعددة يمكن أن تسلك طريقا واحداً . فنهض ورقص " الفالس " وحـده قائلا : يا بنى لا تبهرك أفلام " جودار " .

حتى هذه الحـدة والمناقشات كانـت جميلة ، والآن وحدى وحـجرتى وليل بارد فى بداية الشتاء . وجميعهم سافر ، تركوا المحلة وذهبوا للقاهرة والأسكندرية فى الجامـعات والسكن والعمل ، هل أهفـو للقاهرة . تركت جرائدى . لم أحب القـاهرة أبداً ، أشعر فـيها الغـول الذى يريد أن يلتهم كل ما هو وديع وطيب . لعلنى مستسلمُ ، هل حقا ! !

قالت ساميـة إننى مستسلم لتوحة ولهـا أيضا . وانتى أخاف أن التزم بقرار حاسم . اسمع منهم تفاصيل حياتهم بالقاهرة وفرحهم الجنونى بها ، فأقعى فى ركن حجرتى أخاف إن فتح علىّ أحد بابها . هل هى سجنى أم جنتى الواسـعة . أى ذعر تسـببه لـى شوارع القاهرة ! السـيارات الزاعـقة المفزعة ، عـبور الشوارع والنط فى الأتوبيس ، وارتبـاكى بالكتب والجرائد تحت إبطى والعناوين فى ورق مبعثر بجيوبى ومواعيد القطارات وآخر سيارة

أتوبيس وتحسس نقودى القليلة بشكل دائم . والجلوس معهم فى رحلاتى القليلة على المقهى ، لا أستريح لهذا اللغط ، وكم الادعاءات ، وكافة الأوصاف والألقاب التى يبعثرونها على أنفسهم ، واستعراض ثقافات غالبا ما كنت ضدها . أراهم فأفرح وسرعان ما أمل وأود أن أطير راجعا للمحلة وأنا مازلت محتفظا بمحبتهم قبل أن ينهشنى فجأة أحدهم . أم . . أم أننى كنت ضعيفا أمام ثقافتهم !

أحببت الكثيرين منهم ، وكرهت بمعنى الكراهية الكثيرين ، وأحببت "يحيى" كان مزعجا لآخرين طيبا كطفل معى . اعجابى بقصصه هو سبب إعجابى بشخصه ، شخصه المستفز لآخرين ، متعاطفا لأقصى درجة معه كإنسان فقير يبحث عن مكان عن لقمة عن صاحب ودود ، لكن موهبته جعلته يكتب القصص وهو يشرب الشاى على المقهى ، ويحفظها وهو يركب الآتوبيس أو وهو يمشى من الجيزة إلى شبرا .

كنا جالسين على المقهى ، وفريديقهقه كعادته عندما سألنى يحيى : أقرأت قصتى الأخيرة ؟ . قلت : نعم . فأنا كنت أبحث خلفه عن كل حرف قاله أو تركه على مقعد فى مقهى ، وسألنى : ما رأيك ؟ . قلت : لم تعجبنى ، لم يندهش ، مع أن آخرين لايستطيعون الصراحة بهذا الرأى فى وجهه لأن الثمن سيكون غالياً ، ولم نكن فى زمن الارهاب لكن فى زمن الصراحة المطلقة حد اتهامهم بأنهم جهلاء .

همس لى بشكل طيب وبثقة مفرطة : لا . . أنت لم تقرأ القصة جيدا ، وشدنى من يدى قائلاً : تعال لأقرأها لك .

كنا فى مقهى وسط البلد ، لم استشر نفسى ، مع من أحبهم أنسى كل شئ إلا تلك اللحظة الطيبة التى أطمع أن أعيشها معهم ، لم استأذن من أحد ولا فريد الذى أنام معه فى سكنه بالمدينة الجامعية أيام زيارتى للقاهرة ، كان فريد وحسام وجميل وآخرون يتناقشون بحيوية وحماس بينما انسحبت بهدوء مع " يحيى " الذى يمشى بقلق بإحساس أن روحه ليست

طليقة كما يجب ، أخبرني أن المكان الذى به القصة محدد تماما وأن المشوار بسيط ، وأن القـصة يجب أن تقرأ مـن جديد واننى ربما فاتنى فـيها أشـياء هامة وأن شـابا مثلى يكتب قصـصاً طيبة عـليه أن يرى الحروف وقصـصه بالذات بشكل لائق بمن كتبها وأن التجارب التى أمر بها أنا ومر بها هو منذ جاء من الصعيد حتى موته تجربة خـصبة وهامة رغم قصر عمره وأن كل ما أراه من كتاب على المقهى ومن لم أرهم كتابا مـتوا ضعين وليسوا موهوبين ، وإنما الظروف الثقافيـة هى التى جعلتهم يكتبون القصة القـصيرة والشعر الحديث وأن الموهبة لاتكمن إلا فى قليلين هو منهم وأنه فى الحـقيقة أحسن كاتب قـصة قصيـرة فى العالم ، ما رأيك فى ساندوتش فـول وساندوتش طعمية فإن المشى يحرق الطعام لتمكننا الطاقة من عبور الزمان والمكان لأننى لا أملك قرشا واحـداً فتستطيع أنت يا جابر وبشلـن واحد أن تجعـل مـن مشـينـا هذا أهمية ومـعنى ، وأضاف إنه لايحب غيـر الموهبين والموهوبين مثلى بالذات ، فابتسـمت فقال لا تبتسم ، اسمع الكلام بأهميـة وتفحصه وأرفض بعضه وتمسك بـبعضه حتى الموت ، فـأكلنـا الساندوتشـات وهـو يقـص لى مشـهدا سوف يكتبـه فى قصته الجديدة عن جـمل يدخل الحارة فيـسدها كأنه الظلام قـد حط ، هل تمعنت المشهد ، وأعـاد ، كيف يحط جمل فـيسد النور ويتـحول إلى جبل من ظلمـة ! ، وأكد ، إننى اختـصر عليك سنوات طويلة فى الكتابة .

كنت أحبـه ، أربت على يده ، كنت أخاف عليه من نسـمة باردة أو عطسة عـابرة ، أو شرير يحاول مـهاجمتـه ، قال لى أنهم أشرار فـعلاً ، لكننى أقهرهم كلما كتبت قصة جديدة ، يشتموننى لكنهم لأنفسهم يقولون كلما رآونى قادما من بعيد إننى أحسن كاتب قصة قصيرة فى العالـم .

عـبرنا إشـارة المرور قلت له : شلن وشلن وشلن ونسـتطيع معـا أن نشترى العالـم مـرة بشلن أحمر ومرة بشلن أزرق ، فضحك كـثيرا وأخذنى تحت إبطه وقال أنه يحبنى ، وأذكر ذات ليلة وكنا نتـمشى بعد إنصرام ليلة طويلة أنا وجميل ويحيى وإبراهيم ، أن قرآت على " يحيى " قصة جديدة

كنت محتفظا بها بين ملابسي وجلدى ، بعد أن سمعها يحيى قال هذه قصة سيئة ، بينما كان رأى جميل إنها قصة جديدة ، وفى الشارع وكان إبراهيم يتقدمنا ويحكى عن النيل والليل بكلمات قليلة شاعرية تقهقرت للخلف قليلا ثم أخرجت القصة التى لم تعجب يحيى ومزقتها ، وطوحت بها فى الهواء ، تناثرت ورفرفت فوقنا الوريقات وحطت علينا بعض الحروف ، رآنى يحيى فابتسم فى رضا ، بينما رجع جميل بانزعاج شديد وسألنى بحدة ماذا فعلت ، فقلت فى بساطة مزقتها ، غضب جميل من تصرفى وقال إننى لايجب أن أتعامل مع قصصى بهذا الشكل ، لكن يحيى ابتسم وقال لجميل : جابر سيكتب قصصا أجمل ، فعصنى إبراهيم بود وشعرت بدفئه وهو يقول ضاغطا على كتفى : ازيك يا واد ياجابر .

خلفنا تركنا محطة مصر ونفق شبرا ، وكان لايكف عن الانحناء فجأة ليلتقط شيئا من الأرض ، وقال : أن الأرض مملؤة بالكنوز ، فقلت ساخرا ضاحكا : يايحيى الأرض مملؤة بالمسامير الصدأة واعقاب السجاير والبصاق المدمى والقرش الممسوح والزرار المقطوع وعرق ناشف وإيصالات الكهرباء وعيدان الكبريت المحترقة والمياه الملوثة المتسربة من المجارى وآثار أقدام بشر فاتوا الحياة والطريق وربما لايرجعون أبدا و. . . ابتسم وقال : رائع ياخويا ياحبيبى ها أنت تمسك بمفردات جيدة ، ونصحنى بالمشى أكثر من القراءة .

وعندما انحرفنا لحارة جانبية وصعدنا درجات السلم تنفست الصعداء، تبعته للطابق الثالث ، وقد هدنى المشى ، خبط على شقة ففتحت بنت ترتدى بلوزة بنصف كم وبنطلون وهتفت بفرح يحيى ، والتقينا بشابين واختهما وأمهم ، بعد الشاى وخلع الأحذية من الأقدام صرنا أصدقاء نتحدث عن السينما والكرة والحرب التى لم تأت وفيروز ، ثم لعبنا " الكوتشينة " ومضى الوقت طيباً ، وعندما سأل الأخ الكبير : هل تأكلا ، كنت على وشك الموافقة غير أن يحيى رد بسرعة قائلاً : لا لا : نحن مدعوون على العشاء الليلة . . لا تفسدوا كل شيئ .

ودعـونا على باب الشـقة بابتـهـاج. نزلنا درجات الـسلم فى خفـة وطرب، وتصورت أن " يحيى " نسى موضوع الـقصة التى لـم تعجبنى ، لكنه وفجأة قـال : بعد ثلاثة شوارع سنصل إلى" حمص " ، فـسألته من هو " حمص " ؟ ، قال بدهشة : ألا تعـرف حمص !! الممثل المشهور ، وهناك - عنده - القـصة التى لم تعـجبك وأردف كواعـظ : لابد أن تقرأ جيدا كى تفهم جيدا .

انتبهت فى جلستى ، فقد خدش الصمت حركة ، تصنت ، فسمعت صوت أقـدام تطلع درجات السلم ، أعـرف هذا الصوت له ضـغطة ورتابة وإيقـاع . . إنه صوت ضـغطة قـدمى أمى على درجـات السلم حين تكون حاملة على رأسـها طست العجـين ، بعد قليل ستـدب رجلى زوجة أخى ولكن بايقاع أسرع قليلاً ، بالفـعل ها هو الصوت الثانى ، ثم وقع الأقدام الخفيفة التى تكاد تطير ، وقع أقدام أختى إفراج .

الجزء الأخير من الليل تستقبله أمى بالخبـيز اتقاء لصهد النهار وزحمة العيال ، نهضت مـتثاقلا ، فى أحايين كثيـرة كنت أفتح الباب واقابلهن فى حبور ، وكنت فى أحـيان أخرى اجلس معهن وابـط الرغيف وكنت بارعاً لأننى منذ طفولتى وأحب ليلة الخبيز ، كنت التـصق بفخذ أمى ولا أتركها وأبحلق فى النار التى بـجوف الفـرن ، وأتابع الرغيـف منذ أن تلقيـه أمى ببراعة فى الفـرن ثم وهو يرتفع قليلاً قليلاً ، وعندما تشـده بالعود الحديد سرعان ما أضع فى قلبه السمن والسكر وأدعكه ثم التهمه .

لم يبرحنى طعمة أبدا مقترنا برائحة أمى .

فتحت الباب وخطوت ناحية حـجرة الفرن ، هتفت أمى : جابر . . أيقظانك . . هل نمت . . ظننتك تقرأ . أو سهران تسمع نجاة . حبيبتك .

قلت اطمئنها . . لا يا أمى . . لم أنم ، هى تعرف أننى اسـهر معها ليلة الخبـيز ، ساعدتهن فى فرش الأشـوله على الأرض ، وأزحت أقراص "الجله" بجـوار الفرن لتـصبح فى مـتناول يد أمى ، ووضعت مـع زوجة محمد ألواح العـجين ، وعدلت إفراج من وضع الصينية النحاسـية الكبيرة المدورة المرشوشة بالردة .

على وجه أمى ينعكس لون النار فيضيئها حياة ، وترتفع " المطارح " فى الهواء وتنزل بهمة ونشاط ، تتكلم أمى وعيناها على فوهة الفرن وجوفه والرغيف الذى يقب ، ويبدأ حبل الحديث والحواديت ، اسمع عن أبى وعن الضرائب التى تأخرت وكيف حل كل شئ فى مجلس المدينة وكيف سهر أبى وأمى بسبب هذا الموضوع ليال كثيرة ، وأنا اسمع لأول مرة ! وسمعت لأول مرة عن احتمال طلاق ابنة عمى من زوجها أمام هذا الفرن ، وكيف تحقق ذلك فيما بعد ، وحواديت خالى مع جنية النهر وزوجته التى كانت تعلم بكل شئ وتساعده حتى لايضار ، وكيف ذهب عريس لابنتى عمتى الصغيرة فزوجوه للكبيرة ، أعرف كمية من الأسرار التى تدهشنى .

الليلة كنت ساهما ، رشقت عيناها فى عينيى : مالك يا جابر ؟ لاشئ يا أمى ، أعمل لك رغيفا بالسمن والسكر . لا . . شايا . . لا . حتى " لا " كانت تخرج فى حشرجة وألم ، نادتنى بيدها ، رحت ، شدتنى إليها ، التصقت بها ، كانت النار فى الداخل شديدة وأرغفة الخبز تنضج بسرعة والدفء ينبعث ، همست لى : ألن تذهب لشغلك غداً ؟ هززت رأسى . لن أذهب ، هكذا قررت وهى تسألنى ، فأنا موظف مواظب احترم رؤسائى فى العمل ، أقوم بعملى على أكمل وجه ، لا أستهلك أجازتى العارضة أو المرضية أو الاعتيادية ، لم يتصور أحد أن أكون موظفا لهذه الدرجة ، أصحو مبكرا لأركب أتوبيس السابعة صباحاً لأصل كفر الشيخ فى الثامنة ، كنت أحب المكان خاصة موظفاته البنات والرجال العجائز ، للصغيرات حكايات وللعجائز حكايات ، كما أننى أحببت الأرقام وكنت أسعد بضبطها فى كشوف الماهيات والاستقطاعات والأقساط ، والخصم والعلاوة ، وبعد يوم عمل شاق التقى بعلى الشاعر الطفل وعبد الدايم وعاطف وأحمد زملاء الفن هناك ، نجلس على المقاهى ، نتوغل فى الغيطان ، نجرى تحت المطر ، نسمع الشعر والتعرف الأول على كتابة السيناريو ، نصرخ ونفرح ونبتل .

لم يعد لى أحد فى المحلة ، سافروا إلى حيث لا أحب ، دائما أهرب من جنوح الفنانين ، لا أحب ادعاءتهم ، حكت أمى عن جدتى فهيمة حكاية طويلة ، لم استطع متابعتها ، كنت متعبا وساهما ، وسارحا فى حقول الماضى القريب ازدحام أتوبيس كفر الشيخ وأرهاقى ، ويحيى .. يحيى خبط على الباب خبطات عديدة وعنيفة ، قلت آه .. حمص غير موجود ، وكنت مرهقا .. لابأس ، ولكن " يحيى " أخرج مفتاح الشقة ، وقال لابد أن حمص يصور بعض المشاهد مع عمر الشريف .. أعتقد أنه كان يسخر ، لكن الشقة لم تفاجئنى ، شقة بسيطة ومتواضعة ، صورة الممثل فى صدر الشقة تراها من أى ركن ، رميت بنفسى إلى الكرسى الواسع اللين ، سأل : أتعبت ! قلت نعم ، قال : لابد أن تسمع القصة ، دخل حجرة وغاب .

تجولتُ فى الشقة بين نباتات ظل وأحذية مقلوبة وزجاجات فارغة ومجلة أجنبية ترقص فيها الصور العارية ، دخلت المطبخ ، استطلعت أخبار الشاى والسكر والبوتاجاز ، سمعت صوت يحيى ينادينى ويكلمنى أكثر من مرة ، لم أهتم .

أعرف ما يعذبنى ، مسحت أمى على وجهى بيد دافئة ، قالت فجأة : توحة سألت عنك فى الصباح .. كنت فى المطبخ ، وجدتها فوق رأسى .. سألت عنك وقبلتنى ومشت .. لم أقل لك من قبل .. لا أرتاح لها .. قلبى يقول لى احذرى منها .

كان علىّ أن ابتسم وأقول لها أن توحة طيبة ، وإنها ابنة لناس غلابة ، وأنها تعيش حياتها بحثا عن فرح ، ولا تجده سوى فى جسدها .. الجميل .. الجميل يا أمى .. جسد توحة جميل ..

ولم أقل لها ، للدخان رائحة وللخبيز رائحة ، ولكن هل للدفء رائحة ! صبت إفراج الشاى فى الأكواب ، وضحكت قائلة : السهر للصبح .

تقوس " يحيى " فوق كرسيه ، وأخذ يقرأ باهتمام بالغ ، وعند جملة ما يقف ليشرح بالتفصيل وكيف كتبها ولماذا ؟ كنت أحب فيه حبه لى واهتمامه ، وكنت أنسى أى انزعاج يصدر منه ، وكنت أحب الهروب معه لأى مكان بعيدا عن مقاهى المثقفين ، وأؤكد له فى كل جملة " إننى أفهم وأعى ، فقال : إذن القصة الآن أعجبتك ، استسلمت وقلت لأنهى الليلة على خير : نعم أعجبتنى ، لكن بعد ذلك بسنوات عديدة اكتشفت أنها قصة بديعة وأن يحيى أساء إليها وهو يحاول أن يفهمنى كل حرف فيها .

ثم انزلق يحيى إلى السجادة وتمدد ، وعقد ذراعية على صورة ونام كمصرى قديم ، ولم أجد مفتاح الحياة لأضعه على صدره المعظم .

عرج الحديث إلى الزواج ، وقالت أمى أن ابنة عمتى تنتظرنى ، ابنة خالى تتمنى التراب الذى تحت رجلى ، بينما أمى قالت إنها تفضل فلانة بالذات فهى طيبة ومكسورة الجناح وتتمنى خدمتنا وتستحق أن اتزوجها ومن أجلها أبذل الرخيص والغالى ، ثم ابتسمت وهى تقول : ولكن ربما جابر يحط عينيه على من لا نعرفها ، أجبتها بابتسامة غير شافية ، تغامزن وتحدثن عن الفلوس وما تفعله فى النسوة ، وقالت زوجة أخى أن المرأة فى حاجة لرجل ولرجل قوى . . طبعا . . ألا تحتاج المرأة لرجل يحميها ، طبطبتُ على كتف أمى ونهضتُ ، تركت دفء الفرن والحجرة ودخلت حجرتى ، أغلقتُ الباب ، تطلعت فى المرآة ، أى شحوب وأى مرارة وأى هم وأى أفكار غريبة تتلبسنى ! المجهول . . . ابتعدت عن المرآة ، أخاف المجهول ، والوجوه المختبئة وراء أقنعة ، فى داخلى يقبع خوف كأنه كائن خرافى شرس يتكوم على نفسه ويقعى فى ركن من نفس فى انتظار لحظة ليهجم ويقضى علىّ . . لماذا ؟ التقطت أنفاسى . . هل هو خوف الكتابة أم عدم القدرة على المجابهة ، هل ضعفى واعترافى به فى خوض أى معارك سياسية ، أم عدم قدرتى على أن أكون بين الجماهير بدعوى أنى فنان ، ومتى كنت قائدا لمسيرة أو محرضاً على عمل ! ؟ سألت نفسى ربما

جنوحى للسلم وحبى للكتـابة ، لا أخاف من هذه الكتب ولا هذه الأوراق إنما أحبها حباً جماً وهى ما تجـعل لحياتى قيمة وأحب حياتى لأجلها ، هل أحلم بالرحيل ؟

إطـلاقا ، فأنا أشـعر بالحنين لحجرتى لو غبت عنها نهاراً واحدا ، ما الذى أبحث عنه إذن ، وما الذى يمكن أن يهبنى الفرحة ! أريد أن أكون فى حالة فرح دائمة ، تأملت وجهى فى المرآة ، هذه حالة من البلـه إذن ، فرح دائم يعنى بله حقا ! سـأكتب رسالة مطولة لفريد أحكى له عـن همى الذى لا أعرفه لا . . لن أكتب لكل همة ، وأنا فى حالة طيبة فأنا اشـتغل ولى راتـبى واكتـب القصـص وأحب سامية وتوحـة وأمامى دنيا من الكتب لم أدخلها بعد .

شددت چاكت ثقيل وارتديته فوق البـيچاما ، .وبالشبب نزلت درجات السلم على مهل ، لا ألوى على شئ ، عبـرت حجرة الفرن ، بصت علىّ أمى فى قلق ، وصـوت زوجة أخـى يقول : وظل يضـربهـا حتى مـزقت جلبابها نصفين أمام أهل الحـارة ، نزلت الدرجات ، واستقبلنى السكون ، فى ممشى الحديقـة الصغيـر تقافز الكلب حـولى ولعبّ ذيله ،داعبنى بفـمه ،اقشعر جـسدى ، أخاف سعار الكلاب وجربهم وانيـابهم ، عضة الكلب المسعور خرافة تحاصرنى ، ماذا لو فـاجأنى وخمشنى ، خرجت مسرعاً ، صفـقـت الباب الخشـبى للحديقة ، وقف الكلب مـتحفـزاً وبلا سبب نبح نباحا عاليا .

أخذتنى الغـيطان باتجاهها ، السـماء زرقة مـغبشـة وشمس لم تسطع وعصافـير تتلقى الصباح الجـديد بزقزقات ورفات عنيفـة ، ها هو الصبح يتنفس ، ضـرب أبوقردان الأرض برجل فطار راية بيـضاءترفـرف . . هل يمنحنى السلام ؟ مشيت فى خضرة الغيطان الداكنة ، تلفنى بحنو ، وتصبغ روحى بأخضر داكن ، وأنا أحب الأخضـر الزرعى ، فماذا أفعل ؟ قررت أن أمشى وأمشى ، أحكمت الچاكت لكن البـرد شديد ، يمكننى أن أسافر

المنصورة لعلى ، فيأخذنى برفق ويدخلنى المستشفى أرى البنات اللاتى تطلع علىّ فى كل مرة ، بنات بعيون زائغة ووجوه شاحبة ، والتفاتات متوترة ، يلتففن حولى ، ثم أصبح بينهن .. يغنين ، يخرجن السنتهن ، يصرخن ، يصرخ فيهن على ينكمشن بجوار الجدار يجلسن فى دفء الشمس ، يأخذنى على أنام على سريره الأبيض يحدثنى بقلب أبيض وكلام أبيض وبروح بيضاء عن عالم أسود تماما ، نظرتُ خلفى فى البعيد، أرى بيتنا شجرة النبق العالية والتمرحنة والجهنمية يصنعون لوحة مغبشة خضراء كثيفة تدخل فى الضباب والسماء ، لكن حجرتى فوق السطح أراها صغيرة ضئيلة عجوز كأم تعلقت عيناها بصغير يغوص فى بحر أخضر عميق ، وددت أن أمشى وأمشى حتى أتلاشى فى الأفق ، لأن لا أحب حال نفسى هكذا ، لماذا لا أتلاشى مثل نقطة بخار ماء فى الفضاء لم يقدر لها أن تكتمل على الأرض .

- اتفضل

افزعنى الصوت المفاجئ ، ضرب قلبى بعنف ، طلع من حيث لا أدرى ، بل رأيت عينين تطلان من خص صغير مصنوع من عيدان الأذرة الناشفة والقش .

- اتفضل

كانت أسنانه شديدة البياض ، وأنفه حمراء من برودة الفجر ، كان الفلاح قابعا فى الخص عندما مد رأسة وقال :

- اتفضل .. ألست ابن الشيخ سيد

اكتملت صورته وهو جالس وأمامه راكية ولسان نار متوهج وفوقه براد شاى أزرق اللون ، صغير ، اقتربت بوجل ، مد لى يدا شعرها غزير مدها بحنو فجلست ، ابتسم ، حين يبتسم تتسع عيناه ! أردف :

- الصباح يحب الشاى .. والشاى يحبونه
من يحبهم الصباح ..

ارتبكت ، صب الشاى ، قدم لى الكوب ، ومدد رجله السوداء ذات الأصابع الطويلة والإظفار الغليظة ، قال :

- سهران من ليلة امبارح . . الرى فى الليالى المقمرة
ياس جابر . .

دهشت لأنه يعرف اسمى ، وأنا لا أعرفه : قال :

- ألست جابر ابن الشيخ سيد.

رشف من الشاى وقال :

- رويت كل الأفدنة ، وتعشيت بذكر أرنب
شويته هنا على هذه الراكية .

تمتمت :

- بالهناء والشفاء

أردف ضاحكا :

- لو كنت أعرف بمجيئك لحجزت لك " وركا "
أو . . . . . هل تحب الأرانب ؟

قلت :

- نعم

وأنا لا أحبها ، بل أخاف منها ويقشعر بدنى واستحضر آلاف القطط أمامى ، فهز رأسه نفياً :

- لا . . أنت لا تحب الأرانب . . لو كنت تحبها
لكان لك فى الطيب نصيبا .

وكلما فرغ الكوب من الشاى صبّ لى شايا ، كان للشاى طعما رائعا لم أشبع منه ، كظمآن لا يرتوى ، همس :

- الأستاذ جوعان .

لم أركز ، كنت أحاول أن أمسك بلحظة شروق الشمس ، ورأيت شعاعا مثل شعره تخترق الأفق ، نظرت لوجه الفلاح رأيت عينية واسعتين ، همس لى :

- الشيخ سيد . . كان صاحبنا كلنا . . يكلمنا
فى الليالى المقمرة ، ونخرج له كلما طلبنا .
ثم ابتسم ابتسامة واسعة جدا ، اقشعر لها بدنى ، وسألنى عن شجرة
التمرحنة ، ولما لاحظ دهشتى قال :
- ياه . . كم أعطانا سيد من شجرة التمرحنة ، وكم
عطرنا بها بيوتنا ونساءنا وأفواهنا . .
وضحك ضحكا عالياً عاليا .
ثم هب فجأة ، وانتتر وهو يقول :
- من هناك .
حاولت متابعته ، اختفى خلف الخص ، مددت جذعى ورقبتى لأراه ، لم أره . . هل ابتلعت الأرض الرجل ، تنفست بعمق ، ثم حملقت فى راكية النار ، التى لم تكن سوى بقايا حطب محروق ، مددت يدى بتردد ، بأصبع وجل لمست البقايا باردة . . كيف وكانت حالاً نارا موقدة ؟ تلفت حولى فلم أجد برادا ولا أكوابا ولا . . وقفت بفزع ، تلفتُ حولى ، لا أحد سوى خضرة داكنة وشمس لاهبة ؛ فأطلقت ساقاى جريا ، دهستُ الزرع ، تعثرت فى قنوات وحدود ، وانخلع منى الشبشب ، والتهبت قدماى من شوك وحصى ، وكان الباب الخشبى مفتوحا فدخلت يتبعنى الكلب ثم وقف بشدة ونبح فى رعب .
ارتميت تحت رجلى أبى الذى نهض بهدوء ، طبطب على ظهرى ومد يده بزهر التمر حنة وقال بثقة .
- شم . . وسوف ترتاح وعنك تنزاح الغمة .
ومسد على شعرى
ويقال أنى نمتُ ليلتين متواصلتين وسألت :
هل كنت مضطرباً ؟ !

- ٩ -

كيف دخل الزغبى صندوق خشبياً ؟

طا ل اختفاء " الزغبى " ولم أعـد أسمع عنه قلـقت مـنه وعلـيه ، لا أراه جالسا على كرسية الواطئ أمام الزبائن ، واكتشفت اختفاء اسمه من التدوال : هل سيتـحقق تخمين " عبده " ؟ ويكون الزغبى مخـبرا حقاً ! واختفى ليعمل فى أرض أخرى !! سألت أبي : هل . . مات الزغبى ؟

كان أبى يسمـع لأختى الصغرى وهى تقرأ لـه من تذكرة داود . قال دون أن يلتفت ناحيتى : ياه . . الزغبى . . هل تذكرت ؟ . . الزغبى قعيد داره من شهور .

دهشت . . لا أعرف كـيف نسيته ، كـان يسامرنا ويجـالسنا ويبادلنا الأفكار ويلمع أحـذيتنا أحذية رواد الحـجرة ، يعـرفهم بالاسم وتخـصص الكتابة ، كانت ضحكته عالية وصوته الأجش لايكف عن الغناء .

قعيد داره . . وأين داره ؟

قـال أبى يشـرح لى : أترك خلفك مـسجـد سـيدنـا " الغمـرى " والوسعايـة ، أطلع لشارع سعد زغلول ، ثم أصـعد قنطرة المدبح . . عن يمينك شادر خشب . . أمامه بيت صغير ، به دكان أصغر . . أسال .

سألـــت ، قـال صاحب الدكان الأصغر وهو يرمى كناسة الدكان فى الشارع :

- الزغبى جوه . . ادفع الباب وادخل .

دفعتـه ، فدخلت . هاجمتنـى رائحة صنان ورطوبة . الشـمس فى الخـارج ، وبالداخل أرى بـالكاد . ضـربت رجلى فى وعـاء مملوء بالماء

فقفزت بطه ورفرفت بجناحيها صفقت بيدى ، جاءنى صوت واهن :

- من . .

قلت : أنا جابر . .

أضيئى مصباح كهربائى صغير ، فتكشف لى المكان . إذ انبعث ضوء المصباح من حجرة صغيرة ضيقة واطئة ليس لها باب ، والمدخل الذى كنت أقف فيه كان ذا أرضيه طينية مبتلة ، والمكان مطلى بالجير ذى اللون الفستقى ، عن يمينى فاجأنى بضحكته الواسعة " الواثقة العذبة عبد الناصر فى صورة قديمة ملصقة بالحائط ولكن بعناية فائقة ، عدا هذا فبعض المسامير فى الحائط ، ومصباح جاز نمرة عشرة زجاجية لامعة ونظيفة ، وتحققت من رائحة الصنان من مكان على الشمال هو دورة المياة بالغة الضيق يسترها ستارة قماش ملونة وبها عدة ثقوب .

ما أن سمع صوتى حتى أختلط عليه الأمر واختلطت تصرفاته ، فصوته يحمل الدهشة والفرح والاستفسار . رأيته ممددا فوق مرتبة بالية مفروشة فوق حصير على الأرض ، وبيديه حاول النهوض لكنه لم يستطع . جريت إليه :

خليك يا زغبى . . استرح .

سعل بشدة ، ثم شد قطعة قماش من تحت الوسادة ، وبصق فيها وكرمشها ودسها تحت الوسادة مرة أخرى . ثم بص فى وجهى وضحك وهو يقول :

- كله بسبب الجوزه والحشيش . . لم أشتر الحشيش عمرى ، لكنهم فى المقهى كانوا يدعوننى للشرب . . أوشد نفس ، أو اشعال الجوزة لهم .

سكت طويلاً ، ثم تأمل فى السقف ذى العروق الخشب وهو يقول :

- لكنهم طيبون ، لم يقصدوا أن يمزقوا صدرى . . ثم . . ثم ما دخل الحشيش بالكساح .

ثم ضحـك عالياً . مـسحت جـسده الممـدد بنظرة سريعـة ، رجلاه ممددتان كيفما أتفق ، فيما جزعه يتمايل وأحياناً بتماسك ، ويداه توضحان وتشرحان وتعبران عن كل شئ ، سألته :

- منذ متي ؟

قال بلا تعبيرات محددة علي وجهه

- من . . من شهور . . منذ طرد السادات الروس . .

ثم حملق في عينيي ، وقال :

- هل تعرف لماذا طرد السـادات الروس ؟ حتى أصـيب بالكساح . . طبعاً . . كان يمكن للروس أن يعالجوني .

خبطت عـلي كتفـه ، ابتسـمت ، وبعد أن خطرت لي فكرة سـريعة همست له :

- اسمع يا زغبي . . سأخرج دقائق وسأرجع .

وأنا أهم بالخروج ، تناهى لى صوته :

- لاتقفل الباب .

تركت الباب واندفعت مـسرعا ، ضوت الشمـس في عينيي . وقفت حتى تتآلف عينيي مع الضوء الشديد . وحين مـشيت سمعت احتكاك قدم خلفي همـمت بالوقوف فـوقفت أيضـاً . خيل لي أن شـخصـاً خلفي ، واصلت المشى ، فلم تكن هـذه الأشيـاء تشغلنـى . تحسـست الفلوس في جيـبي ، ومن عند بائع البرتقـال اشتريت برتقـالا ، ومن الدكان اشـتريت الشاي والسكر وقطعة جبن بيضاء وزيتـونا أسود ، ومن دكان آخر اشتريت خمسة أرغفة ، وتبقى معى ثلاثة قروش ، ورجعت لذات الدار ، وشعرت بنفس الشخص يتابعني ولم المحه ، وجدت الباب مفـتوحاً فدفعته ودخلت . كان المصباح مضاء ، والزغبي ينتظرنى ، وما أن دخلت حتى قال :

- تعال يا جابر .

عندمـا دخلت وجدت المكان أنظف من ذى قـبل ، عرفت أنه يـقوم بجزعـه ويمد يديه وتكون الحجـرة فى متناول يده ، فـقد نظفـها من بعض الأوراق ، وصف ثلاثة أكواب زجاجية نظيفـة بجوار البراد ووابور السبرتو بجانب الحـائط ، ولمحت بجواره من ناحيـة الحائط صندوقاً خـشبيـاً قديماً وفوقه حافظة جلدية مهترئه . مد يده للحافظة وقدمها لى وهو يقول .

- افتحها يا جابر . . افتحها . . ابحث عن إيصال كهرباء ولا أجده . . أفتحها . .

أخذت الحافظة ، ممتلئة بالأوراق . .

وهو يقول كمن يحدث نفسه بنبرة محايدة لم أفهم معناها :

- يا سـلام . . بنوا السـد العـالى حتـى يصل هذا السلك الكهـربى لحجرتى فيضيئ هذا المصباح .

شممت للحافظة رائحة فذة ، نظرت له فقال :

- زعتر . . رائحة زعتر . . هه . . افتح يا جابر . .

فتحتها وشددت أول ورقة ، كان من الصعب قراءة حروفها المطموسة ثم وجدت عددا من الرسائل بتوقيع عزت مشالى . . قال :

- ياه . . عديلى . . هذه رسائل عـديلى . . كان يرسلها لى وأنا فى الجـيش ، أيام ٥٦ بعث لى ثلاثة رسـائل . . واحدة قـبل أن أتزوج أخت مراته ، والثانية بعد أن تزوجت ، والرسالـة الثالثة قبل خروجى من الجيش بثلاثة أشهر وأربعة أيام يخبرنى فيها بموت أمى تحت عجلات قطار الدلتا .

تلفت وهو يضحك .

- كانت لاتسمع . . ولا تفهم بالاشارة . . وكان لايحلو لها أن تعبر قطار الدلتا إلا والقطار يمر . .

صمت لحظات . . ثم أردف . .

- مع أنى قلت لهم أن أمى ستموت غرقاً فى البحر . .
الذى أمـامكم ياجـابر ، لأن نظرها كـان " شـيش بيش " يـعـنى ضعيف . .
وأخذ يضحك . فيما أخرجت بقـية الأوراق ، معظمها إيصالات نور ومـياه غير واضحة التواريخ . حاولـت معرفة الإيصال المفقود لكنه أشاح بيده :
- إرم . . إرم . . إرم يا جابر .
فتـلفت حولى بفـضول أى كـهرباء تسـتحق كل هذه الإيصـالات إنه مصباح واحد معلق فى الحجرة ! أقترحت عليه أن أجلسه ، وافق بعد تردد وخجل ، اسندت الوسـادة بجوار الحائط ومن تحت إبطية حـملته جرا إلى الحائط ، فـاستند ، ومن تحت الغطاء هاجـمتنى رائحة الـصنان الشديدة . رمقنى بعين كليلة ، تظاهرت بأننى لا أشم ولا أفهم شيـئاً . عدلت وضعه ، وقلت مفتعلا الابتهاج :
- مارأيك . . نأكل برتقالا ونشرب شاياً معاً ؟
عـرفت مكان الزير بسـهولة وغـسلت الأكـواب وملأت البـراد بالماء واشعلـت وأبور السبـرتو وقشرت لـه البرتقـال . ثم اعتدلـت ، وعاودت البحث فى الحافظـة . أخرجت من احشائها ورقـتين مثنيتين معـاً بأهمية ، وفتحتهما ، كانت الكتابة بقلم الكوبيا .

١ سريرى حديدى بأعمدة .
٢ مرتبة محشوة بالقطن .
٢ وسادة .
٢ لحاق ستان أحمر .
١ دولاب بضلفتين ومرآة .
٣ حلل نحاس أحمر .

١ وابور جاز ماركة .

١ طشت أرض .

٣ صوانى فى داخل بعض .

مد يده بسرعة قبل أن أكمل ، يفرد أصابعة ويضمها :

- هات هات . . هذه قائمة العفش .

رددت فى نفس : عفش ! أين . . أيـن أى شئ يا زغبى . . أى شئ من هذه الأشياء الفقيرة . لم ينتظر أن أتفوه فقد رد وهو يهز رأسه :

- بيع . . كله بيع . . من أجل الفلوس يا جابر .

حلة وراء حلة . . والسرير بعناه فى سوق

الجمعة . . والطشت . .

ثم همس لى :

- بعد أن دخلت مواسير المجارى للبيوت بعنا الطشت .

وضحك وأردف :

- طبعا . . نستحم على الأرض . . ومن الأرض إلى الأرض .

ثم أشار لى أن أضع القائمة فى الصندوق بجوار الحائط ، مددت يدى له بالقائمة ليأخذها ، فمد يده بعيدا قليلاً . وأيقن ملاحظتى ، فضحك ، قائلا :

- يبـدو أنى لم أعد أرى مـثل خالتك أم الزغـبى التى أخطات الموت غرقا فماتت تحت عجلات القطار .

وضحك بشدة . ثم سكت ، وقال :

- تعال تعال . . خذ الصندوق وافتحه . . خذه بجوارك . .

انحنيت وحملت الصندوق الذى لم يكن خفيفا كما تصورت ، كدت أقع فوق الزغـبى ، فتماسكت . وضـعت الصندوق على الأرض وجلست مكانى .

- افتحه .

هكذا قال بثقة :

- افتحه يا جابر .. وطلعً ما فيه .. ذكرنى .. ذكرنى بالذى مضى .. فأنا نسيت .. ذكرنى يا جابر .

وضعت يدى فى الصندوق ، فارتبك عدد من الصراصير وجرت باتجاهات عشوائية ، أقشعر بدنى ، لكننى هززت الأوراق منذرا الصراصير التى اختبأت من أما عينيى على الأقل . وسحبت أول ورقة ، ورقة مجلة ، فتحتها ، كانت صورة لليلى مراد بضحكتها الواسعة هدية من مجلة الإذاعة ، قلت له :

- ليلى مراد .

ابتسم بسعادة وأخذ يتمايل مغنياً :

أنا قلبى دليلى ..

قاللى حتحبى ..

أنا .. قلبى ..

قلبى .. دليـ .. يـ .. يـ يـ يـ .. لى ..

تسلل السرور إلىّ ، وشددت ورقة جريدة مطوية طيات عديدة ، فتحتها محافظا على عدم تمزيقها فكان عبد الناصر فى حجم صفحة الجريدة .. الوداع يا جمال . ثم وجدت صورا مختلفة لسامية جمال ونجيب الريحانى وصورة كأنها فوتوغرافية لأنور وجدى مرتديا بدلة ضابط ، وصفحة رياضية يتوسطها حارس مرمى المحلة " خورشيد " وهو يطير فى الهواء في قفزة بديعة . قال الزغبى باعتزاز .

- خورشيد .. ابن المحلة .

تمتمت : أعرفه . كنت أحط الصاغ فوق الصاغ لأجمع ثمن التذكرة للمباراة كنت أحب مشاهدة مباريات كرة القدم فى الملعب وكنت مثلك يا

زغبى أحب خورشيد والدرينى وزقلط وينى . ومع هذا كنت زملكاويا .
ضرب زغبى كفا بكف وهو يقول بدهشة :
- عائلتكم كلها زملكاوية . . لماذا يا جابر ؟
ضحكت طويلاً وقلت لا أعرف وواصلنا الضحك ، وواصلت البحث حتى وجدت صورة من مجلة محفوظة بعناية للممثلة المعروفة " مارلين مونرو " فى وضع مثير شبه عريانه ، تكشف عن صدر فاتن . ضاحكته .

- من هذه يا زغبى ؟
قال بخجل طفل ؟
- آه يا جابر . . هذه أسرار . . لا أعرف اسمها . .
ولكنها كانت تنعشنى فى ليال كثيرة ، كنت أتامل العينين والصدر طويلا ثم أستدير لزوجتى وانط فوقها . . أمرأة عكشه . . مائة مرة نطيت فوقها ولم تحبل فى عيل .
ثم سكت برهة وسألنى عن صاحبة الصورة المثيرة :
- هل تعرف اسمها يا جابر . .
- طبعا . . هذه ممثلة أمريكيه اسمها . .
قاطعنى بغضب :
- أمريكية !! لو كنت أعرف ما احتفظت بها .
ثم ضحك ساخراً وقال :
- ولكنى أفعل بها ما يستحقونه .
وواصل الضحك .
ثم وجدت لفه قماش . أخبرته . صرح لى بفتحها ، لأنه كان نسى ما تحوية ، فتحتها ، بداخلها " كاب " من زى الجيش الرسمى
قلت باستغراب :

- كاب . .

اعتدل وقال :

- ياه . . الكاب . . نعم . . كان " كاب " مـيرى . . ملكا للجيش . . لم أشأ أن أعيده أخذته للذكرى . .

ثم مد يده ، يد مـرتعشة عـجوز ، أمَسكتْ بـالكاب بحب شديد ، تحسسه ثم دسه تحت وسادته ، وقال :

- وخرجت من الجيش ، حاملاً صندوق الأحذية . . تلمع يابيك . . تمسح يا بيك . . ولكنى لما جئت للوراقة أحـببت المكان والناس ، وشعرت إنى لا المع لأحـد حذاءه بل أسـاعـدهم . نعم ، لقـد أصبـحت أنا وأهل الوراقة أصحاب ، كنت آتى لعم السيد وأنت صغير وأجلس بجوار الشجرة ذات الزهور الحمـراء ، ألمع أحذية أبيك ومـحمـد وعمر والبنـات ، وبلغة عمك أبو سعده ، ولا أمـد يدى ، لا آخذ مليما أحمَر ، كـانت أم محمد جميلة تحط لي الأكل ، وأى أكل يا جـابر ! صحن طبيخ وثلاث قطع لحم وصـحن سلطة وطرشى وأرز ، ورغـيـفين وفجل . آكل وأشـرب الشـاى واسمع الراديو الذي كان يضعه عم السـيد فى مدخل البيت ثم أمشى . . . ها ها ها . . آكل بمسح أحذية لمدة أسبوع .

وأقترح علىّ أن آكل مـا أحضرته فوافقته على الفـور واغتبط ، وأكلنا وســألنى عن فريد ومحـمد ، واستفسـر عن " عبده " خاصة ، فأجـبته بالتفصيل ، فقال لى أنه يحب عبده عكس ما يتصور هو نفسه ، سألته :

- ولماذا تحب " عبده " خاصة ؟

كان يهرش فى شعره وهو يجيب :

- عبده . . صريح ، ومثل الحمار الذى عليه أن يمشى بلا توقف .

ضحك . . وبين إظفارين قتل قملة وأردف :

-عبده . . لايعرف سوى طريق واحد . . كنت أحـبه واستفزة ليفرح

قلبى بآرائه الحادة . . وأنا صغير كنت حمارا مثله . . أتعرف لماذا يا جابر ؟ لأننى كنت أقول للغولة أن عينيها حمراوتان . .

سكت . . ثم أردف .

- غباء .

شربنا الشاى . . كنت على وشك أن أستاذن فبادرنى قائلاً :

- أتلعب كوتشينة :

وقفت ، قلت أداعية :

- أريد حريفاً . .

هتف :

- أنا . . أنا حريف . . اسمع . . عندك كوتشينة فى الصندوق . . أخرجها لنلعب .

مددت يدى . . أبحث ، وجدتها فى قاع الصندوق ، ورق كوتشينة ملفوفا فى " أستك " عريض . جلست بجواره ، نزعت الأستك ، كانت أوراق الكوتشينة عبارة عن صور لنسوان عارية فى أوضاع مختلفة ، داعبته وناديته بالثعلب ، فقال :

- هذه كوتشينة المعلم " كحلة أتعرفه ؟ ! قبل أن يدخل السجن آخر مرة ، كان يأكل الحشيش ويلعب القمار مع أصحابه ، وكسبهم جميعا ، ولم فلوسهم فى جيبة ، كنت أتابعهم وأنا ألمع أحذيتهم ، لم أتركهم تلك الليلة ، ولما كسب المعلم أعطانى الكوتشينة وقال لى متع نفسك بالصور يا زغبى . . وفى السجنة الأخيرة مات . . قالوا مات . . هذا من زمان . . لكنى احتفظت بالكوتشينة والنسوان فى الصور .

وبدأنا اللعب ، كان يقرب الورقة من عينيه جيدا ليرى الأرقام . . حاولت جاهدا أن يغلبنى ، وكان يعلق على وضع النسوان فى الصور ثم يلعب ، واستطعت أن أجعله يغلبنى أكثر من مرة .

وأنا ألبس الجورب والحذاء . سألته :

- أين . . أين ألست ؟

رد ببساطة :

- تشتغل . . أتصور من أين سنأكل يا جابر ؟

تشتغل في البيوت المقاهى الداكاكين الغرز . .

ثم أشاح برأسه غاضبا :

- أى مكان . . أى مكان . .

وتأتى بعد العشاء بعشاء . .

فأستأذنت منه ، ركعت على ركبتى ، سلمت عليه ، قبلته ، فجذبنى بشدة واحتضننى وربت على ظهرى ، وهمهم بالدعاء لى . نهضت ،واقفا . دمعت عيناه . . وقال :

- زرنى يا جابر .

- حاضر حاضر يا زغبى . . سأمر عليك .

تنبهت للصور والأوراق المبعثرة على الأرض ، همـمت بجمعها فقال يمنعنى بيده المرتعشة :

- لا . . أتركها . . سأجمعها على مهل . .

خرجت ببطء . وتلفت إليه للمرة الأخيرة ، وأنا على العتبة البرانية ، أتانى صوته مبحوحاً :

- زرونى كل سنة مرة .

حرام تنسونى بالمرة .

وعندمـا خـرجت ادهشنى مـرور الوقت ، وغـبس الليل ، ومـا أن انحرفت فى أول حارة حتى همس فى أذنى فأفزعنى :

- جابر . .

كان " عبده " . مما أدهشنى . . رددت :

- عبده . . أين كنت ؟ !
عض على شفته السفلى بغيظ وزعق :
- أين كنت ؟ ! أين كنت أنت .
اندهشت تماما وقلت .
- أنا لا أفهم !
نفخ ، وزعق :
- كنت عند الزغبى . . راقبتك منذ دخلت فى الظهيرة حتى الآن . .
ثم وقف أمامى بتحد طفل مشاغب :
- لماذا يا جابر . . ولماذا ظللت في بيته يوما كاملاً يا جابر !
تأثر وجهه بألم ، ثم أنفرج بعطف :
- وقفت طول الـنهار على قدمـى . . أدخن السجائر وأراقـب الباب وأترقبك . . وانفث خجرى بلا أمل . .
أمسكنى من كتفى وقال بعطف بالغ :
ألـم أحذرك منه ؟ !
شددته من ذراعه بحنو ، وكنت مهموماً ، وهمست :
- في الحجرة سأحكى لك .
فأذعن لى .

- ١٠ -

القصيدة بين مخلب كلب :

منذ الأصيل وأنا فى الشرفة أتابع تراوح ألوان الحقول ، والشمس تأخذ ألوانها وترحل فى جلال ، وتأخذ همى معها ، وحين اختفت الحقول فى دكنة اللون ، ألتفت خلفى إثر خبطة خفيفة على كتفى ، هالنى رؤية " رحاب " بطولها الفارع خاصة وهى ترتدى البنطلون الچينز ، ومعلقة بكتفها حقيبة ذات يد طويلة لاحظت إمتلاءها . فرحت وتوجست فى آن . سألت رحاب :

- كيف وصلت ؟

استرخت على الكنبة وقالت ؟

- بالقطار . . مرهق قليلاً ، لكننى وصلت .

ثم مدت يدها لمجموعة قصص " ناتالى ساروت " " انفعالات " ، ونحتها بعيدا وهى تقول معلنة عن استيائها :

- ساروت " أشياء فارغة ، مالك وهذه الكتابة ؟

ابتسمت وقلت :

- ما عليك . هنا جوركى أيضاً .

وتأملت وجهها الطفل ، وإصرارها على أن تقوم بدورها الثورى الذى تلعبه داخل الجامعة وخارج الجامعة أيضا . قلت ذات مرة لجميل ما أسهل إشعال الطلبة ولكن هل يفهم رجل الشارع شيئا !! ؟ . رحاب . . تعرفها كل الجامعة المصرية ، قدرتها فائقة على التحريض وإعتلاء أكتاف الطلاب وقيادة المظاهرات وترديدها للشعارات ذات المعنى الهام والخطير . كانت مثل

آخرين تمتلك قدرا كبيرا من الإندفاع والقليل من الفهم ، تختلط طموحتها الفردية بطموحات الوطن ، والتخيلات الثورية التى كانت تشكل جزءا من حياتنا . أشعلت سيجارة ، مدت يدها بالعلبة ثم تراجعت قائلة فى شبه سؤال :

- لم تدخن بعد .

ثم ضحكت وهى تسأل :

- كيف تكتب بدون سيجارة أو كأس أو حتى زجاجة بيرة ؟ !

ضحكت أنا الآخر متسائلاً :

- هل هذه الأشياء من أدوات الكتابة ؟

نهضت ، وقفت أمام صورة جيفارا قائلة :

- فلاح . . وهذا مفيد جدا . . عليك مهام كثيرة .

لم أعرف هل تقصدنى أم تقصد جيفارا . عدلت وجهاز التسجيل ، وشغلته فأنطلق صوت فيروز يغنى . لم تهتم . دخلت " إفراج " وقدمت كوبين من الشاى ، داعبتها " رحاب " وتبادلت معها حديثا جانبيا ودودا وأخبرتها إنها تعتز بالشاى ولكنها تريد أن تأكل . سألتها :

- حالا :

قالت :

- بالطبع لأننى سأسافر بعد . . ساعة . . لا . . ساعتين . . أو ثلاث ساعات . . سأركب بيجو وأرجع الليلة .

خلعت الجاكت ورمت به إلى السرير ، كانت فى اكتمالها ونضجها وجمالها تدافع عن نفسها برأسها العنيد ومواقفها فى الجامعة . سألتها :

- ما أخبار كمال ؟

دخنت بشراهة وهى تحكى لى :

- كمال . . شبه منفصلين الآن . . هذا بالنسبة للبيت . . لا أعرف هل الزواج مبكرا . . لالا . . ليس الزواج . . كنا نود أن نقيم ارتباطا . . علاقات جديدة يا جابر .

نظرت لى طويلاً وقالت :

- هل تفهم ؟

قلت :

- أفهم وأعترض . . علاقات الحب فى الجـامعة وخاصة فى دوائركم الثقافية والثورية .

رجتنى ألا أسخر . قلت :

- لا أسـخر . . فـالعلاقـات التى تطورت لزواج ، وأحيـانا بداخل الشقق ودون أن يـعرف الأهل أصبـحت منتشـرة وسائدة . . لى أصـدقاء وصديقات بنفس الحالة ، طلبة جامعة ومتزوجين يمارسون الحب والثورة . . وهذه رومانسية أحبها ، ولـــكن بكــل غـــباء لا أستسيغها أشعر يا رحاب أن خطأ ما يرتكب .

وقفت بطولـها الفارع ، وبيـد رقيقـة لعبت بشـعرها الناعم الأصـفر وقالت :

- جابر . . أنت ابن ريف . . فى المدينة . . خاصة القاهرة العلاقات مخـتلفة . . لو انسجمت حـياتنا أنا وكمـال سنبدع حياة رائعـة . . أما إذا . . .

تلفتت حولها ، وجدت مطفأة سـجائر ،. ابتسمت ، سحقت عقب السيجارة فى المطفأة ، وهى تقول :

- تضع مطفأة سجائر لأصحابك وأنت لا تدخن . . هذه ديمقوقراطية أحسدك عليها .

حاولت أن أرد ، فقالت :

- على فكرة . . كل الزمـلاء معـجـبين بك ، بشغلك ، وإلتـزامك ورصانتك .

ابتسمت ، داعبتها :

- شكرا يا جميلة الجميلات .

أردفت :

- لكن علاقتى بكمال فى الجامعة جيدة جدا ، خاصة مجلات الحائط التى تساهم بقدر كبير فى بلورة الوعى عند الطلاب ، كما أنه فى يوم الاعتصام بميدان التحرير كان من أبرز القادة ، وكان حلقة الاتصال بالمثقفين والمحامين . . هو . . شخصية فريدة ، ولكن فى علاقته بى !! للأسف . . أرى شدة تخلفه .

هرشت رأسى وأنا أقول :

- كلنا يحمل مناطق تخلف عديدة . . هل هناك أى أدعاء بأننا بقراءتنا ومجلات حوائطنا وأشعارنا الثورية قد تخلصنا من كل شئ ! ؟

لعبت فى شعرها الناعم ، ثم استلقت على الكنبة وهى تقول ؟

- هل يمكن أن استلقى قليلاً ؟

تمددت ، ولأول مرة أرى فينوس ممددة ، وقد عقدت يديها تحت رأسها بحلقتْ فى عروق الخشب ، ثم قالت كأنها تحلم وبصوت خفيض :

- بديعة حجرتك . . شجرة عنب . . عروق خشب . . أشعار مكتوبة على الحائط . . كتب . . تفرد . . تمسك بحياتك هذه يا جابر .

وقفتُ ارتب بعض الأشياء لأتغاضى عن الجسد الممشوق الممدد والصدر الذى يعلن عن أنوثة جبارة ، وقلت :

- كيف هذا ؟ والتطور . . والجدل . . أنا عن نفسى أحلم أن أعيش فى بيت فخيم ، له أثاث جميل ، وعندى كل الأجهزة الكهربائية والإلكترونية ، وحديقة أزرع فيها أندر الأشجار .

نظرت لى شذرا . ضحكتُ وقالت :

- برجوازى !!

وأكملت ضحكتى وأردفت :

- أبدا . . الحياة الطيبة هى ما نحلم به . . أليس كذلك . . كم أحب حجرتى هذه . . وأحب عروق الخشب هذه ولكنى أعانى حين يختبئ بينها البرص أو الفئران .

نهضت قائلة بحماس :

- عالمك جميل يا جابر . . تمسك به ، وبتميزك .

- انحنيت ضاحكا :

- شكراً .

خبطت إفراج خبطة واحدة على الباب ، فنهضت " رحاب " جريا وفتحت الباب ، لتدخل إفراج بصينية الأكل . نظرت " رحاب " إلي الصينية ثم طلبت على استحياء شوكة وسكينة . وأكلنا .

أصبحت الآن أكثر هدوءا . مشطت شعرها ثم جلست فى استرخاء واضعة رجلا فوق رجل وشدت نفساً عميقا من السيجارة ، ثم فتحت حقيبتها بتؤدة واهتمام وأخرجت مجموعة أوراق وناولتها لى قائلة :

- هذه بعض التحليلات والأفكار وآخر النشرات ، لتقرأها بالطبع ، وبعد ذلك يمكننا أن نتناقش .

أخذت الأوراق ، قلبت فيها على مهل ، ابتسمت فى خبث فأنا قرآت ذلك من شهور طويلة أومأت برأسى ، وقلت :

- سأقرأ باهتمام . . وأناقش بجدية . . إننى فى غاية الأمتنان .

نهضت فجأة وهى تقول :

- على فكرة ، عندكم . . هنا طالب زميلنا اسمه نبيل يقولون أنه فى المستعمرة . . اسم غريب . .

مستعمرة ؟! المهم . . هل تعرفه ؟! نبيل فؤاد .
- نعم أعرفه ، وأعرف بيته أيضا .
قالت بثقة تشوبها السعادة .
- كنت أعرف أنه يعرفك وأعرف أنك تعرفه وتعرف بيته . . فهيا . .
سألت باستغراب :
- إلى أين ؟
قالت كأنها تحفظ خط سيرها بدقة :
- سوف نذهب معاً إلى نبيل ، نعطية الأوراق ، ثم أرجع فورا لأركب سيارة بيجو وأرجع إلى قاهرة المعز .
- دخلنا فى الليل . . وسوف تتأخرين ، يمكنك أن تقيمى هنا الليلة ، وفى الصباح نذهب لنبيل وتسافرين . .
أعترضت بشدة وأصرار :
- لا يمكن . . سأرجع للقاهرة الليلة ، نحن نعد لمؤتمر هام جداً لمناصرة فلسطين ، وسوف نخبرك فى موعده . . هيا . . هيا إلى نبيل .
أخذتُ الأوراق ووضعتها فى خزينة المكتبة الصغيرة ، وحملت هى حقيبتها المحشوة بالأوراق ونزلنا فى طريقنا إلى المستعمرة .
والمستعمرة لغير المحلاوية أمثالك يا رحاب ضاحية واسعة جداً مسورة وبها بيوت العمال - عمال الشركة - وهى غير بيوت ومساكن الموظفين - موظفين الشركة - بيوت الموظفين فخمة لها حدائق وشوارع واسعة ، ضاحية المستعمرة مدينة صغيرة مبنية بشكل أفقى ، وبها الجمعية التعاونية والمخبز وبوليس النجدة ومدرسة ابتدائية ودار سينما لم تعرض أفلاما منذ سنوات طويلة ، لكن المساحات الواسعة الخضراء ما تزال قائمة حتى الآن ، تتقاطع شوارعها الواسعة النظيفة المسفلتة بانتظام وتتميز بهدوء ، وفيها يظل العامل مقيما حتى سن الستين ثم يخرج وعياله وعفشه بحثا عن سكن فى

أى عزبة ومنشأة مزدحمة ، ونحن صغار كنا نعيد ونتنزة فى تلك المستعمرة ، حيث نركب العربة الكارو ويجرى الحصان ونفرح نحن ونتزل عند البوابة الأولى للمستعمرة نجرى بسرعة من أمام مبنى بوليس النجدة وننطلق فى اللعب على النجيل أو ندخل السينما أو نتزحلق على " الطبلية " وكانت دائرة كبيرة جدا من الرخام ، ونشرب زجاجة مياه غازية ونرجع وقد احتفلنا بالعيد ، ولا يدخل أولاد المحلاوية مستعمرة الشركاوية إلا فى الأعياد ، غير ذلك المستعمرة للشركاوية فقط لاغير .

أمتلأ وجه رحاب بالبهجة وهى تقول : -

- كم أنتم بسطاء ! . . تحتفلون بالعيد بمجرد ركوب العربة الكارو ! بالنسبة لنا كان العيد مشكلة . . أين نسافر لنقضى العيد ؟ أخى يريد الإسكندرية وأمى تريد بورسعيد مسقط رأسها ، ونحن البنات نريد القناطر . غير تجهيز الحقائب والآكل وبنزين السيارة واسطوانات الأغانى . . وكم سنصرف من نقود وملابس و و و . . .

قلت لها :

- نحن كنا نحلها بعربة كارو ونظل نغنى طول الطريق للسائق والحصان : وحلال فيه التعريفة .

عبرنا البوابة الأولى فأصبحنا داخل المستعمرة ، لسعة برد شديدة ، ربما الليل وربما اتساع المكان ، أكدت لها أننى أعرف البيت لكنه فى الخلف ، أدهشتها الشوارع الخالية من الناس حتى الإضاءة خافتة للغاية .

قلت لها :

- جو رومانسى .

قالت بأعجاب :

- فعلاً . . كأننا فى استوديو و " الماكيت " جاهز ولكن أين الممثلين ؟

وصلنا لقلب المستعمرة ، فأخذتها نشوة المكان ، فغنت بصوت مسموع به بحه أسمر يا أسمرانى

مين قسَّاك علىَّ

لو ترضى بهوانى . .

لمحتهم على الجانب الأيمن بجوار عامود كهربائى ، ثلاثة شبان تقريبا ، التفتوا بشدة وأهتمام ناحيتنا لحظة مرورنا بجوارهم . طبيعى يا رحاب أن العيون تأكلك فى كل مكان ، ما بالك وأبناء العمال الذين يرون أمثالك على شاشة التليفزيون فى أحسن الأحوال .

كفت عن الغناء بارتباك شديد حين مشى بجوارها تماما الشاب الأول النحيل الأطول تصورتها صدفة مددنا الخطى ، فضربها بذراعه في جنبها ، فوقفت ووقفت ، سألته :

- أى خدمة ؟!

اتسع فمة مبتسماً وبانت أسنانه الصفراء ، وبص لرحاب من شعرها إلي حذائها ذى الكعب العالى . ثم تمتم كأنما يفكر .

- نعم . . أريدها .

تلفت وحولى ، تأكدت إنها رذالة ، سألت بحدة :

- تريد ماذا ؟

تطوح بخفة ، فخمنت أنه مخمور أو يدعى ، أشار بأصبع كاد يلمس صدر رحاب .

- هذه . . هذه الـ . . التفاحة .

أمسكت يدها وقبضت على يدها بقوة وشددتها لنسرع ورميت فى وجهه عبارة :

- اتفضل مع السلامة .

وكنت فى غاية القرف . لم اتبين وجهه فى الظلمة ، قالت بدهشة ساخرة •

- ما هذا ؟

قلت غير ساخر :

- لا تهتمى .

ولم أترك يدها مشينا بضعة أمتار ، فظننت أنه الآن يضاحك أصحابه بما حدث ويشير لهم علينا . لكننا سمعنا وقع أقدام خلفنا تماما بشكل مستفز وملحوظ ، فوقفنا ، نظرت خلفى وجدت أربعة شبان ، بينهم النحيل ، التفوا حولنا . كان علىّ أن أواجه النحيل نفسه قلت بعصبية :

- ماذا تريد ؟

اقترب منى جدا فى تحد ، فاحت من فمه رائحة الخمر . تمتم بلسان معووج .

- قلت لك . . هذه . . هذه . . الـ . . بطيخة الـ . . حمراء .

فانطلق الآخرون يضحكون في هستيريا . سألته محاولاً أن يكون حوارا :

من أنت ؟

تطوح وهو يقول باستغراب :

- من . . . أنا ؟ أنا الكابتن . . الكابتن شمشون

شمشون الجبار .

ثم ببساطة وهدوء أزاحنى من أمامة قائلاً :

- مع السلامة . . شوف سكتك . . شق طريقك .

رجعت بقوة لرحاب ، امسكت يدها مرة ثانية ، حاولت أن أمشى من بينهم وأنا أقول :

- نحن ضيوف نبيل فؤاد .

انطلقوا ضاحكين ، ساخرين .

- نبيل فؤاد من !!

- يمكن جمال عبد الناصر . . .

- ها ها ها ها ها . . . .

هنا أدركت صعوبة الموقف ، تلفتُ حولى . ظلمة غير متوقعة ، فهم النحيل أن عينى تبحثان عن مخرج ، فنادى على زميلة الضخم ، قائلاً :

- أره الزبون .

أوسعوا له المكان ، فدخل المشـهد وبيده حبل يجرجر به كلبـا ميتا . قال الضخم المخمور أيضا :

- ها هو . . كلب . . تجرأ ونبح فى شمشون ، فكان .

هذا مصيرة .

أخرج شمـشون زجاجة من جيب مـعطفة فتحهـا وشرب ، ثم مسح فمـه بكم المعطف مثل رعـاة البقـر الأمريكان . شـعرت بيـد " رحاب " بـــاردةكالثلج ، بل وبدأت أشعر أرتجافها . ياللمسكينة ، ماذا ستفعل ؟ ما أسهل أن تقود آلاف الطلاب هاتفين بأقوى الشعارات ، مـعتصمين بالجامعة ليل نهار يطالبون بالأرض والحرب ، ولكن ماذا ستفعل مع شمشونَ !!

حسبـتها بسرعة ، لن أسـتطيع مواجهتهـم ، ولَن أستطيع الصراخ ، ويبـدو أن أهل المستـعمـرة لايخـرجون إلا فى الليل البـارد ، وأن أجهـزة التليـفزيون تضئ لهم الآن حـياتهم ، نظرت حـولى فى كل مكان وفـجأة جذبت " رحاب " بشدة وأخذت فى الجرى ، جـرت معى بسرعة فائقة ، جرينـا بكل ما نسـتطيع بأتجاه البـوابة الثانيـة لنخرج منهـا . كنا نلهث ، سمعتها تقول : قلبى . لم أبال . جرينا . نظرت خلفى كانوا يجرون أيضاً أعتمدت علي أنهم ليسوا فى وعى كامل وهذا سيعوق جريهم . رأيت سور المستعمرة وهذا شجعنى كثيرا ودفعنى للجرى بشكل أسرع ، فجأة صرخت " رحاب " .

- الحذاء .

انخلعت فردة الحذاء ، وقـفت لتجرجرها ، وضعت قدمـها فى فردة الحذاء فكان شمشون أمامنا . فى هده المرة كانت المطواه فى يده وقد شرعها في وجهـى ، وبكل ما بداخلى من خـوف وقوة ورعب دفـعته بيـدين فى صدره ، كـاد يقع ، فـانطلقنا نجرى مـرة أخرى ، ونلهث . رمـيت نظرة خاطفة خلفى ، لم أجـد سوى شمشون يجـرى خلفنا وبيده المطواه ولـم أر زملاءه . قلت لها بصعوبة بالغة :

حالاً سنخرج .

ظهر رجلان تبادلان الحديث بصوت مسموع ، فأطمان قلبى ، وعبرنا البوابة الثانية فـعلا ، وأصبحنا في الشارع حيث السـيارات والأتوبيسات ، ولكننا مازلنا فى طرف المدينة ، فـالسكون مقيمـا ولا أحد على الإطلاق ، توقفنا لحظات لم نجد شمشون تنفسنا الصـعداء ، وأشرت لها لنعبر الشارع للجهـة الأخرى لنركب الأتوبيس ، لم تترك يـدى ، ربت على يدها بيدى الأخرى . عبـرنا الشارع ، وبعد فروغ الصبـر جاء الأتوبيس ، أى أتوبيس في هذا الاتجاه سنصل به قلبى المحلة . كنا نتطلـع بشغف وأمل حتى لمحنا الأتوبيس ، توقف للحظات ، فقـفزنا داخله ، قفزنا لدفء لـم أحسه من زمن بعيد ، الركاب يعدون على أصابع اليدين ، لكنهم بشر ، ما كاد وجه رحـاب يشرق حـتى غاص فى شـحوب ، وأومـأت برأسهـا ناحيـة باب الأتوبيس الخلفى ، كان شـمشون ممسكا بيد بظهر الـكرسى وبيدة الأخرى الزجاجة . ابـتسم حين تلاقت أعيننا ، أمسكت يدها ومـشيت وأنا أهمس لها :

- تعالى :

وأخذنا طريقنا لمقـدمة الأتوبيس ، جلسنا بحيث يرانا السـائق ، تقدم شمشون بسرعة ووقف أمامنا تماما . رآه السائق فقال بسعادة بلهاء :

- مرحباً بالكابتن .

شعـرت بمأزق غريب وتوهمات ووسوسـة ، هل ستيأمـر مع السائق ضدنا تأملت وجوه الركاب ، كانوا نائمين أو عيونهم زائغة لاتلحظ شيئا . بالفعل لاتلحظ لأن يد شمشون كانت تمسك بزجاجة وباليد الأخرى مطواه رآها السائق فعلق ضاحكا :

- الليلة أنس يا أبا الكباتن .

وكأننا قـطعنا ألف ميل فى مـائة يوم ، لكننا الآن فى قلب المحلة . أضـواء وبشر وأصـوات . وقـفتُ . . وقـفتْ معى . قلت لـلسائق آمـراً وبداخلى أرجوه :

- محطة بنزايون .

ما أن وقف الأتوبيس حتى شددتها بقوة ، فنزلنا إلى الرصيف ، فقفز وراءنا تقريبـا . لمحته . لـم يتكلم ، بل ينظر لى فى تحد وتحـذير وتهديد ولوح لى بالمطواه الـتى لم يرها سـوانا . الآن أسـتطيع أن أصـرخ ويلتف الناس حـولى أو حتى أواجـهه ، أحـسست أنفـاس الناس تساعـدنى على الدفء ، أمسكت يدها . قلت بسرعة :

- هيا نغير الطريق .

- كانت متلهفة على النجاة ، نادت رجلاً لتشركه معنا ، وسألته :

- أين شارع العباسى ؟

وقف الرجل يشرح لنا ، أشار للجهة الأخرى :

- اعبرا الشارع ستجدان العباسى .

عبرنا للناحية الأخـرى ، لم ننظر خلفنا ، دخلنا زحمة " العباسى " مشينا بعض الوقت ثم وقفنا تماما. نبحث عنه ، لم نجده ولم اره ولم يتبعنا . مضيت صامتاً فيما " رحاب " تتكلم بلا توقف بغضب واستغراب وإدانة ، أما أنا فكنت فى غاية الضيق والقرف لأننى أكـره العنف واستغلال القوة لأرهاب الآخرين . معترفا بـين نفسى بالضعف تجاه هذه البربرية . وأكظم

غـيظى لأننى لست قوياً بحـيث كنت لا أكف عن ضـربه حتى يسـتغـيث وساويته بالكلب الذى يـجرجره صاحبه . ياه .. هل نمتـلك نفس التفكير فقط يعوزنا التنفيذ !

فى الحـجرة التى فـوق السطح رمت حـقيـبتـها بما تحـمله من أوراق وتحليلات ، وشربنا الشاى الساخن ، وأخـذت تتكلم عن حثالة المجتمع ، وأنا أسأل لماذا هم حـثالة ومـا الذى يدفعهم للقـوة الغاشـمة ، ولماذا نحن عاجزين أمام أى ظاهرة عنف . هل هو الضعف أم الثقافة ؟

تحدثت معى بانفعال ، ودخنت عددا من السجائر . خبطت أمى على الباب ثم دخلت كـنا بعد انتصـاف الليل ، قدمت صـينية فوقـها الأكل ، وجلست تحدثنا عن برد أمشير والحسوم والأمطار ، ولما عرفت أن "رحاب" قاهرية تحـدثت عن ذكرياتهـا مع أبى عندما كـانت تسافـر معه لـلقاهرة ، حديثها الطيب أعاد هدؤا مفتقدا و بسـمات أنسانية ورغبة جديدة فى الحياة . ثم نهضت وهى تقول مؤكدة لرحاب :

- خذى راحتك .. ثم أنزلى لتنامى معى ..

واكدت أمى لرحاب قبل أن تغلق الباب .

- جهزنا مكانك للنوم .

أعرف ذكـاء أمى وحنوها ، أمسكت بجمـيلة الجميلات نفـرتيتى بين يدىى ، وقلت :

- قررت أمى أن تستضيفك في حضنها .

كان وجه رحاب طفلاً مضيئاً وهى تقول :

- وأنا فى حاجة لحضنها فعلاً .

تركت رحاب أشيـاءها ونزلت . أغلقت الباب . جلستُ إلى المكتب ، سحبت ورقـة ، رسمت مطواه ووجها طفلاً . رميت القلم ، استـمعت للبرنامج الموسيقى تسـللت الموسيقى الهادئة لتبعث سرورا دافـئاً ليوم جديد كان يمكن أن لا أراه تمددت ، تخيلت " رحاب " بطولها الفارع فى حضن أمى ، فأبتسمت ولم أنم .

... والموضوع لا يستحق

خَبَط عُلى باب الحجـرة شعرت فيه بالتوتر ، فتـحت الباب ، فرأيت "سعد" يطالعنى بوجه شاحب . استقبلته فى دهشة ، هذه ليست مواعيده ولا تعوده . ارتباكه ظاهر ، رمقنى بنظرة فـيها عذاب ولوم . جلس قبالنى على الكنبة . سألته ؟

- أتشرب شايا ؟!

- لا . .

- أتاكل !

- لا . . لا . .

أخرج منديله ، مسح عرقاً غزيـرا لا مبرر له . أدركت أن " سعد " فـى ورطة . علىّ أن أتماسك . نهضت بتـؤدة ، واجهت المرآة ، مشطت شعرى ثم جلست . لكنه كان يتنفس بصعوبة وأحيانا يعض شفته .

- خير يا عم سعد !

همس في حشرجة :

- استدعونى فى أمن الدولة . .

نحيت كتابا جانبا بخفة . قلت بلا مبالاة . .

- وبعد ؟ !

بلع ريقة بصعوبة . قال :

- فقط . . و . . ثم . . فأنهم . . سألونى عنك . .

ثم سألونى عنك . . ثم سألونى وسألونى وسألونى

عنك .

رهشت شعرى .

- جميل . . وماذا قلت لهم ؟

- لاشئ . . قلت أنه أديب وإننا أصدقاء .

فأنا شاعر . . ثم أخذوا يسألوننى عن الماركسية

وعن تنظيم شيوعى . . . و . .

هززت رأسى . .

- هه . . وماذا قلت لهم ؟

- لاشيء . . فقط . . قلت الماركسية معروفة فى الدنيا كلها . . لكن

لا أعرف إى تنظيم شيوعى .

ربت عليه . .

- أين المشكلة ؟

نهض . . ثم جلس . . ثم تلفت بعصبية :

- لا . . لا شئ . . فقط . . كأنهم يوجوهون

لى هذه التهمة . . ثم انهم سألونى عن قصصك والرموز التى بها . .

وماذا تقصد ؟

استأذنت منه ، فتحت الباب بهدوء ، لسعتنى نسمة بادرة ، ودهشت لأن "سعد" يمسح عرقه . نزلت درجات السلم على مهل وأنا أفكر بسرعة .

عندما رجعت للحجرة ، رأيته خلع الجاكته وجلس فى استرخاء وعاد يحكى بشكل أقل توتراً .

- حصار من الأسئلة ليس له معنى . .

نظر لى بعينين تكاد تدمع . .

- كنت جالساً بين أبى وأمى اتناول العشاء حين جاء أخى الأصغر يطلبنى لرجل يطلبنى في الخارج لرجل آخر يطلبنى فى المكتب . .

كان طعم البيض المسلوق مازال فى فمى وأنا أمامه فى المكتب . .

سألنى عنك . .

ارتبك . . صاح :

كلها . . كلها إجابات جاهزة . . وأصروا على محاصرتى . .

فتح زرار القمـيص ، ثم خلع الحذاء . تركته يفعل ما يشـاء رمقـته بعينى . . لم استوقفه . ضرب على فخده بيد مشدودة .

- اسئلة عنك ، وعلاقتى بك . . ماذا تقرأ

وماذا تكتب ومن اصدقاءك ؟

صرخت اسألوه . . صرخ لا تصرخ . .

ثم نظرلى طويلاً ، يكاد ينفجر غيظاً . .

- هل تعرف سألونى عن ماذا أيضاً ؟

- عن ماذا ؟

- عن الحرب . .

- أى حرب ؟!

- التى لم تحارب . .

ثم ضرب صدره بقبضة قوية وهو يصرخ :

- الحرب التى لم تحدث . .

- فماذا قلت ؟

- قلت سننتصر مثل كل الحروب السابقة . .

كما انتصرنا فى ٥٦ واليمن . . وفى أى حرب سندخلها .

دمعت عيناه فعلاً ، وارتعشت شفته السفلى . .

نهضت بأسى لحالته ، وأنا أهمس :

- لماذا يا سعد . .

قال ، وهو يتمخظ . .

- طلبوا منى . . طلباً مستحيلاً . .

قام ، جلس على كـرسى أمام المكتب ، رجع إلى الكنبة . تركـته ، قلبت فى مجلة الطليعة ، سألنى هو :

- هل تعرف ماذا طلبوا منى ؟

توجست ، لكننى لم أرد . هززت رأسى نفياً .

- طلبوا منى أن ابتعد عنك . . و . . و . .

وأن هذا في مصلحتي .

ثم انخرط فى البكاء .

- ١٢ -

أدوار .. لا يمكنه الكلام لكن حمل طرفه الرسائل .

أنا . . . .

فانتفضت أوتار العود مع صوته الرخيم ، وأنا شعرت برهبة غريبة مثل كل مرة يبدأ فيها هذا الولد " أدوار " العزف والغناء ، رأيت المسيح يطل علينا من عل لا تفارقه ابتسامته العذبة ، وكان إطار صورته مصنوعاً من خشب وأصداف . ابتسمت لادوار وأحنيت رأسى ، فواصل ، رائعاً :

" أنا . . فى أنتظارك خليت

نارى فى ضلوعى وحطيت

إيدى على خدى وعديت

بالثانية غيابك ولا جيت . .

يا ريتنى عمرى ما حبيت . . "

الله الله يا أدوار .

لقيته أول مرة بصدفة الزحام التى رمتنى على كرسى بجواره فى اتوبيس مزدحم وكنا عائدين من أعمالنا بكفر الشيخ ، يجلس بجوار الشباك ، لم ينظر لى ، شعره ناعم جداً وطويل أيضاً ، أنفه رومانى . فى منتصف الطريق شدنى من الزحام ورائحة العرق والصراخ والرزالة والازعاج شدنى لما تمتم بصوت خفيض وعيناه مرشوقتان هناك فى خضرة الغيطان :

على بلد المحبوب وديني . .

زاد وجدي والبعد كاويني .

قلت له أن صوته حلو وإنني أكتب قصصاً وأحب الأصوات الحلوة ، أومأ لي وابتسم . عرفتة مكان حجرتي ، فعرفني مكان بيته . ولم نلتق بالصدفة لسنتين .

وذات ليلة في شتاء كنت وحيداً تحط على رأسي الهموم ، وأفتقد أصدقائي المبعثرين في أنحاء مصر ، والقصص تهرب مني وتختفي في طموحات تقهرني . إياك يا حجرتي أن تعزليني وتحبسيني بين جوانح حبك الدامي . لم أكمل شرب كوب الشاي . رزعته ، وارتديت ملابسي ، وخرجت ، وأغلقت باب الحديقة بهدوء لكنه الكلب الغبي نبح عالياً . أطل أبي من الشباك الذي يعلو سريره مباشرةً .

- من ؟ جابر . . أغلق الباب جيداً .

صوته في الليل لفني بصحبة من أمان وقوة . فمشيت بمرح مفاجئ .

وخطر في ذهني أن أقضي ليلة مثيرة ونحن بعد منتصف الليل فاتجهت إلى الشارع الصغير الضيق الذي به بيت توحة .

" يا حبيبي وأنا قلبي معاك

طول ليلي سهران وياك

تتمنى عيني رؤياك . .

أشكي لك وأنت تواسيني "

يمكنني أن أقابلها صدفة ملفوفة في بالطو أو في معطف واتعرف عليها ، تأخذني في حضنها وتلفني بالبالطو . .

" ياهناي لما أفرح بيك

واتهنى بقربك وأناجيك . . "

أو ترانى من الشباك ، فتطير منه إليه ، أخذها فى حضنى وننعطف فى حارة مظلمـة ندخل عربة كارو وتدعك يدى بيدها الساخنة ويكون العالم حصانى الليلة . ولكن . . . ظلمة الشوارع خاصة الشارع الصغير الضيق ، والأبواب والشبابيك الموصـدة خاصة شباك توحـة ، والبرد القارص ، كل ذلك أعادنى لاحـباطى الأول ، فركلت حجـراً فطار فى الهواء وارتطم فى عمود كهربى حديدى فعمل صـوتاً كفرقعة جعلنى أتلفت ذعراً حولى ، لو حـاولت مليون مـرة لن يحـدث ذلك بدقة ! فـتح رجل نافـذته وأطل هنا وهناك ثم شتم العيال أولاد الكلب الجبناء الذى يجرون كفئران فيما تمالكت نفسى ووضعت يدى فى جـيب بنطلونى ولم أبص خـلفى فصـفق الرجل نافذته ، وخرجت إلى شارع العباس .

ألن يبادلنى أحـد همومى المختلطة وعـذابات روحى التافهـة ! أو حتى يسامرنى . أود الكلام . . نعم الكلام . أو سهرة طيبة . مع من ؟ هم فى القاهرة لا يجدون وقـتاً ، وأنا أوقاتى كلها ملكى . من غير تـوحة ! فجأة قفز صوت أدوار :

" يا مسافر على بحر النيل

أنا ليه فى مصر خليل

من حبه ما بنام الليل . . "

أدوار !!!

خبطت الباب بكل مجازفة . لم أشأ استعمال الجرس . خبطتين رقيقتين . وانتظرت لحظات . سأنزل فوراً . كيف أزوره للمرة الأولى بعد منتصف الليل ؟ ومن يدرى ربما أخطأت البيت ؟ الطابق الثالث الشقـة الثانية أمامها شجـرة من شجـيرات الظل . . . و . . انفـتح الباب ، وأطـل وجه أدوار

مبتسماً رغم الوقت المتأخر :

- جابر . .

شدنى بيده

- تفضل .

تلعثمت فى البداية ، وهو هادئ تماماً . رائحة طيبة وصوت دش مياه . جلسنا فى حجرته ، السيد المسيح يطل علينا ، وزهور قرنفل . سألنى ماذا أشرب فقلت شاياً .

عرفت أنه يعيش مع أبيه وأمه وثلاثة أخوة وبنت .

- لم أتوقع أبداً أن أراك يا جابر

- كيف يا أدوار . . لكنها المشاغل .

العود بجواره على الكنبة . ابتسمت مشيراً له .

- هل يمكن أن أسمع ؟

لم يرد . قام واحتضن العود . وضعت كوب الشاى الذي فرغ تواً . لم يسألنى شيئاً . تأمل وجهى برهة ، ثم تنحنح ، وأمسك بالريشة . ليس الخجل ما يعتريه ، لكنه صموت ، بدأ يغنى :

" عايز أعرف لتكون غضبان

أو شاغل قلبك إنسان

خلتنى من يأسى أقول

الغيبة تغيب على طول "

أدخلنى فى شجن ، فيما يحتضن العود ويهتز بنشوة ، تذكرت سامية برقتها وقسوتها ، وأمى بحنوها وعطفها ، ودموع إفراج التى ليس لها

حل. عندما أنتهى من الأغنية وابديت اعجابى الشديد إذ اكتشفت مهارته الفائقة فى العزف . لم يرد علىّ . فقط أشرق وجهه . وعرفته . وأصبحت أتردد عليه . أجلس فيشد عوده ويعزف ويغنى . وعندما حاولت اتبادل معه بعض الحكايات أو الآراء ، يرد بإيجاز شديد ، أحياناً لا يحتمل أى إجابة قلت له:

إن من أحد أسباب حبى أنه قبطى ، وكان لنا جيران أقباط كنت أحبهم أيضاً وكانوا يحبوننى جداً ومريم ابنتهم لم تفارقنى إلا بعد زواجها ، وحضرت معهم الفرح فى الكنيسة مع أختى عليه ، وأمى دعت لها بالهناء والسعادة ، وفرحت بكل الأقباط الذين سلموا وربتوا علىّ وقبلونى بحب بالغ ، وحاولت أن أصنع حقيبة من خرز ملونة لابنتهم مريم .

نظرتُ للصليب المتدلى على الحائط ، وكلمتُ أدوار عن مفتاح الحياة والفراعنة وتلوت له شكاوى من الفلاح الفصيح . ولم يتكلم . طول عمره يسمع باهتمام ويرد ببساطة :

– المصريون أخوة

والسياسة لا يخوض فيها ، وحين سألته عن رأيه فى الرئيس المؤمن . ابتسم ابتسامة واسعة وهو يؤكد :

– مؤمن .

إذن ، سأكون صديق أدوار الصموت ، وصديق عزفه وغناءه .

" اتقلب على جمر النار

واتشرد ويا الأفكار "

قلت له مؤكداً :

- تحب بيرم التونسى .

فقال بأدب بالغ "

- أحب زكريا أحمد ، وأم كلثوم .

وضرب بريشته ضربتين ، وانطلق :

" توعدنى بسنين وأيام

وتجيبنى بحجج وكلام "

فيما بعد دعوته إلى حجرتى . تردد . فكر . ثم وافق . قلت محذراً:

- ستجد أصدقاء فى انتظارك . . كلمتهم عنك كثيراً .

اندهش وسأل :

- عن ماذا ؟

طمأنته :

- عن صوتك . . وعزفك .

تنهد بارتياح .

فى الحقيقة لم أستطع أن أصل بشئ آخر فى شخصية أدوار الودود الصموت ، أمه كانت تحمد الرب لأن أدوار متدين يعرف الكنيسة وقلوب الناس . ومؤدب . أما أخوه الأكبر عندما جلست معه ذات مرة فى البلكونة التى تطل على الشارع فقد أكد لى أنه لا يحب التمثيليات التلفزيونية ولا برامج الأطفال ولا الأغانى الهابطة ولا نشرات الأخبار . كانت أخته أيضاً لطيفة جداً ، فى الجامعة ، لها شكل رومانسى تتكلم عن

حبهـا للكنيسة كثيـراً وتحدثنى عن أعيادهم وتطلب بإلحـاح أن أحدثها عن القصص والمسرح ، والسينما ،وحدثتنى بإداراك عن أفلام مثل : انفجار ، ورجل وأمـرأة ، وزد . وكانت حـريصـة على أن أرى أى ملابس جـديدة أشتـرتها وتأخـذ رأيى بالنسـبة لأسرتهـا كانت ثرثـارة تحب فيروز ونجـيب الريحانى وعـادل خيرى . ويتدلى على صدرهـا سلسلة تنتهى بصليب من ذهب تخبأه فى صدرها أثناء وجودها بالكلية ، سألتها :

- لماذا ؟

ضحكت وهى تمزح :

- من عين الحسود . .

انتظرته على أول الوراقـة ، كان مـرتبكاً بعوده ظنا منه أن منظـر العود سيـثير الناس . فحكيت له عن أسـرة عريقة فى الرقص والموسـيقى تقطن منزلاً خلف بيتنا تماماً .

وأهل الوراقة فى ألفة مع شكل الراقصات والموسيقى والطبلة والعود .

قابلنا أمى على باب الحديقة . سلـمت عليه بحرارة وتوجس لأنها تراه للمرة الأولى ، قدمته لها بكل الحب :

- أدوار . . صاحبى . .

سلمت بحماس بالغ

- إزيك يا ضناى . .

مشينا ، فشدتنى من يدى . تراجعت . همست تسأل :

- قبطى ؟

- نعم . .

فقالت بفرح من فقد شيئاً ووجده :

- اسأله عن مريم والحاج ميخائيل

فى الحجرة التى فوق السطح تتطلع لصورة جـيفارا ، وعندما كان يغنى بعد ذلك يعلق عينيه بصورة . سباحة الحصان الأحمر .

توافد الأصدقاء ، كانوا فى غايـة الرقة مع أدوار وحاول عبده أن يعزف عبـثاً ، وكنت رتبت للقـاء فى إجازات تتـوافق مع إجازة فريد مـن الكلية وعودته من القاهرة مـحملاً كالعادة بصديقـنا المخرج الفنان الفلاح الطويل الجميل مـحمد الشامى طالب مـعهد السينمـا الذى أخرج لى قصة قـصيرة حازت على مركز أول . وأجازة أحمد من الجبهة وفى تلك المرة أحضر لى هدية بديعـة عبـارة عن كيس صـغيـر مملؤ برمل سـيناء مع تحيـات الجنود المصريين ، هكذا قال لى . واجازة خاطفة لعبده . الذى قال لأدوار :

- سأحبك يا أدوار لو استطعت أن ترقصنى .

شد أدوار العود ، ثم غنى :

" يا من لعبت به الشمول

ما ألطف هذه الشمائل . . "

رقص عبده فارداً ذراعيه ، يكاد يبكى شجناً وهو يردد مع أدوار :

" لا يمكن الكلام لكن

حمَّل طرفه رسائل . . "

وهتف : يا خرابى . .

صعد عمر ، وأطل علينا مبتـسماً . وعاد الجميع للجلوس بيننا ، وكان يهتز مع الغناء بأعجاب . بعدها طلع الأولاد ، والبنات الصغيرات ، التفوا حولنا ، ومنهم من قفز إلى السرير . وقف عاطف أمام أدوار يحلفه بالنبى الغالى ويسوع المسيح أن يغنى له إيه فكر الحلوة بيه .

أمي طلت علينا ، تضحك ، ناديناها جميعاً ، دخلت وهي تقول بخجل فتاة :

- أنا أحب الغناء !؟

صرخ عبده لأدوار :

- يا بني . . إيه فكر الحلو بيه

دندن . . وصفقنا . . وغنى :

- " باعت بيسأل عليه

واللى انتهى فات زمانه

والحلو ليه دمعه خانه . .

تقافز عبده وفريد . . وفريد يؤدى بطريقة مختلفة تماماً . . وبلحن مغاير . .

" إيه فكر الحلو بيه . "

بعد الأغنية الخامسة كانت افراج تجلس مزنوقة بين عبده وأحمد وفتحنا الباب على السطح فكانت ابنة الجيران وأخواتى البنات ، وأخى محمد ، وكانت المفاجأة وصول عطية ابن خالتى من الجبهة بزى الصاعقة . رفع يداه لنسكت . ثم هتف :

الصاعقة . . رجال الصاعقة . .

الوحوش . . الوحوش . .

الأبطال . . الصاعقة . .

هييه . .

وصفق وتقافز ورقص بلدى حتى أرتمى فى أحضان عبده . التهمت الأيدى بالتصفيق واحتوت حالة الفرح الجميع ، وصعِد أبى . يتلمس المكان. وقال بسعادة :

- أهلاً سى أدوار .

" لولا سمارك جوه العين

ما كنش نور "

بعدها كان السطح مزدحماً ، اندفعت الطيور من أعشاشها ، قفز الديك الرومى لأعلى مكان وكركر عالياً ، ومرقت الأرانب من تحت أرجلنا ، والدجاج ملأ المكان ، وطارت الديوك ، وعلت موسيقى العود ، ودقات القلوب الفرحة وقعت بانسجام ولم يتوقف أدوار عن العزف والغناء حتى الصباح ، والجميع يوقع معه :

" يا حلو يا اسمر

يا حلو يا اسمر "

الغريب أننى لم أر أدوار منذ سنوات ، لكننى أعرف عنوانه .

- ١٣ -

إفراج تمنعنى من البكاء .

قابلتنى فتاة سمراء نحيفة وصغيرة وترتدى ملابس سوداء فى سوق مزدحم بالناس ، لكن رائحة الفاكهة أسعدتنى وانتشيت لحظات ، أنا الذى كنت منذ قليل فى حالة من غم مبعثها الأصدقاء وبعض الأهل والنفس الآمرة بالحزن . اعترضتنى بطفولة ، فوقفت بحياد . سألتها :

- نعم ؟

قالت :

- الأستاذ جابر !

- نعم . .

سحبتنى من يدى وهمست :

- توحة زعلانة منك . .

- أعرف

- لكنها ستنتظرك الليلة فى سينما المحلة حفلة السادسة . .

سحبت يدى ، وتلعثم لا مبرر له قلت لها :

- قولى لها أنى سافرت . . هاجرت . .

حملقت فى وجهى وهى تقول بأسى :

- منذ متى ؟

- من يومين .. ولن أرجع .. لن أرجع ..

وتركتها ومضيت .

فى الحجرة رميت بنفسى إلى الكنبة وكنت قد سئمت السياسة بخرئطها ومواعيدها ومواعيدها الاحتياطية وأوراقها التى تكدست وتعاليها الثقافى ، وضقت ببعض الزملاء ، ولم يعد يستهوينى بعض الأصدقاء ، وضجرت من قصصى وما اكتبه ، حتى كتبى ربطتها فى رزم وقررت أن أتخلص منها، كنت في توق لكتب أخرى وزملاء جدد ، ولأفكار مختلفة . مدت يدها بالشاى فأنتبهت عيناى الزائغتان .

- شكراً يا أفراج .

انحنت ، بصت فى وشى من أسفل . تمتمت :

- سرحان !!

هززت رأسى أن نعم .

جلست على السرير ، فى مواجهتى ، وظلت صامتة ، ترقبنى بعينين كليلتين ، وأنا أحبس دموعى خشية تحررها .

- ١٤ -

الولد الذى يحكى حكايات لم تحدث

منصور .. نسمة هواء وبلسم ، يأتى إلىّ كلما فكرت فيه ، يربت على ظهرى كلما أفتقدت حلماً . كان معى طول ذلك اليوم منذ الصباح . عندما طلعت الشمس وفرشت السطح الذى يسكن فيه مع أمه وأبيه كنت معه . خلع نظارته ، ودعك عينيه ، وأشار على عينه الحولاء وقال ضاحكاً :

- أحكى لك حكاية لم تحدث

وكعادتى ابتسمت ، وبراحة حقيقية :

- احك يا منصور ..

- كان العيل يلعب فى الحقل بجوار الجاموسة والحمار ..
ويصطاد " أبو غزالة " ويلعب خلف الحمار ، بغتة
وبضربة واحدة من رجل الحمار الخلفية فقد
العيل عينة ، لكنه احتفظ بها حولاء .

شربنا الشاى وتحدثنا عن عالم الكمبيوتر وعلاج العيون ، وتبادلنا الشكوى وإن كنت أخجل منه فحياته القاسية بين فقر ووحدة وأب مريض وصلابته الشديدة تسرب لى الخجل من مشاكلى ، لكنه يفرح جداً حين أكتب قصة ويتناولها بأهتمام بالغ لا يسعدنى كثيراً . سمعنا صرير الباب ،

فخرج أبوه ، نظر لنا بامتعاض طويلاً ثم نظر تجاه مشذنة عالية ولم ينبس بكلمة ، هرع منصور إليه ، فلم يعيره اهتماماً ونزل . ، تبادلنا الصمت . وقرر إبراهيم أن ينزل معى . رجته أمه ألا ينزل معى ، وقالت فيما معناه أن أباه يخشانى ويحب منصور ويريد له السلامة . فأصر أن يأتي معى . دمعت أمه ، وبتوسل قالت :

- لا تنزل يا منصور . . ربما أغلق فى وجهك الباب لو رجعت .

تركنا منصور ونزل درجات السلم ، القيت بنظرة اعتذار لأمه ، ونزلت وراءه .

فى الحجرة خلع الفانلة الرمادية اللون ، الصوفية الخيوط ، وطوح بها للسقف ، ثم ارتمى عل السرير وسألنى باستغراب :

- لماذا أشعر بالحرية وأنا معك ؟!

ونهض ، وخرج إلى السطح ، ومن حنفية المياه فوق السطح توضأ ، ودخل الحجرة وصلى الظهر .

- حرما

- جمعاً إن شاء الله .

كما سعيت إليه ، لدفئه وتصنته وطيبته ، وكم هربنا من المحلة إلى الغيطان نلتقط الفول الأخضر ونأكله ، أو حتى الذرة نأكله طازجاً بدون شى وكان يشيرنى شخصياً حين أكله نيا ، ولما نقطع الباذنجان نأكل ولا نرجع إلا فى الليل للباذنجان طعم العسل . وهناك عند كوبرى صغير من الأسمنت فوق ترعة ماءها جار كنا نجلس بالساعات . . يجلس على سور الكوبرى الواطئ كعجوز له هيئة شاب وطفل :

- هل أحكى لك حكاية لم تحدث

- إحك يا منصور.

يقف ويشير إلى السكك البعيدة :

- هناك .. فوق طريق من الطرق السريعة كان
الأتوبيس يحمل الفلاحين البسطاء وطشوتهم المكدسة
بالجبن القريش والبيض فى طريقهم للسوق ، وبينهم
الكمسارى سعيداً بمبادلتهم الود والابتسامات وعلى
استعداد أن يقسم قلبه عليهم ولكن حين كانت
البنت الفلاحة فى طريقها لعبور الطريق إذا بالأتوبيس
يدهسها كحيوان خرافى غبى ، ويصرخ الكمسارى
الطيب ويكاد يقتل السائق ويكسر زجاج الأتوبيس ،
والناس تمنعه ، حتى البوليس قال له قضاء وقدر ، لكنه
أبداً لم يهدأ لم يفارقه صوت الضربة المكتومة ولا الدم
على الأسفلت المتكسر ، وفقد كل اتزان وعقل وعاش
فى مأساة ، وكان مجرد شخص فى مكان الحادث

هل عندما أطل أبوه فى وجهينا بامتعاص كان لا يرانا بل يسترجع المشهد والصوت المكتوم للضربة ونهاية حياة فجأة لمجرد عبور بنت فلاحة لطريق سريع ، لمجرد عبور لم يتم .

- سأحكى لك عن توحة .. ذات مرة رفضت أن
أقابلها فى حفلة الساعة السادسة ، فعانقتها حتى البلل
فى حفلة الساعة التاسعة .

تنفرج أساريره ويتصنت باحتمام ، ويحلق بدقة .

يمد كل منا الآخر مـا يتمناه . لكنني مكبلا تجـاهه ، أحب أن اسمع له فقط ، فـهو صديقى الوحيـد الذى لا يمارس الكتابة وهذا أفضل مـا فيه . ويفاجئنى :

- أحكى لك حكاية لم تحدث

ابتسم . .

- احك يا منصور . .

- لتفوق الولد دخل كلية الهندسة ، ولفقره . . تركها مكتفيا بكلية التجارة التى لا يحبها . وسوف يؤثر هذا فى مستقبل حياته كثيراً . لكن . . ربما ذهب الولد إلى الأسكندرية وتزوج بنتاً من هناك وينجب منها ، ويهيم حبا بالبحر ويظل يحكى للبحر ، وعند الجزر تأخذ الأمواج كل حكاياته وتذهب للعبث .

أذكر هنا للتاريخ أن صاحبنا " مسعـد " سألنى بعد عشرين سنة بدهشة بالغة وكنا فى بلاد بعيدة وطقس بعيد :

- هل فشلت الدنيا كل هذا العمر أن تلوث منصور ؟

أكدت له وكان قد فرغ من شرب علبة البيرة .

- فشلت .

أخرج علبة سجائر من بنطلونه الرمادى الصيفى الخفيف الذى يلبس تحته " كالسون " فى الشتاء . وأمسك بسيجارة وقال لى :

- أتدخن !

دهشت - كانت أول مرة أرى سيجارة بين إصبعيه - فسألته :

- منذ متى تدخن ؟!

ابتسم قائلاً :

- هل أحكى لك حكاية لم تحدث ؟

أومأت برأسى نعم .

- كان ياما كان فى سالف العصر والأوان شاب بخيل
وضعيف ، يأكل دجاجة من الجمعية كل شهر مرة ،
وكان على استعداد أن يقدم روحه هدية لأبيه . .
ولكن الأب قفل عليه الباب وقال الممنوعات المائة
التى قررها عليه منذ وعى الدنيا . . وآخر الممنوعات
كانت ممنوع السجائر ، ثم زغر له وقال أذبحك . .
أذبحك . . أذبحك ، فأدمن الشابُ السجائر حتى يذبح
ويذبح ويذبح .

وضحك عالياً وأردف :

- كل الممنوعات لذيذة . . لماذا لا تدخن يا جابر .

ابتسمت قائلاً :

- لأن أحداً لم يمنعها علىّ .

تركنى ، وذهب بجوار شجيرة صغيرة جداً ، دخن بشراهة ، ثم أجهش بالبكاء . فأخذته فى حضنى ، ورجعنا لحجرتى التى فوق السطح.

من عندى لك بيجاما . . ومن أمى غذاء ، ومن
افراج كوب شاى سكر ثقيل .

تمدد على السرير . خلع نظارته . وقال :

- احكى لك حكاية لم تحدث .

جهزت بعض الأوراق ووضعتها بين غلاف كتاب ، ابتسمت وأنا أقول:

- احك يا منصور .

- كان وحتى الآن رجلاً لم تلمس شفتاه شفتى
امرأة ، ولم يسهر ليلة واحدة هائماً فى عينيى أمرأة ،
وما لمست يده ولو بطريق الصدفة نهد فتاة .

لم أعلق . . ولكنى قلت وأنا باتجاه الباب :

- سأتركك ثلاث ساعات ، وأرجع . .

قال بسعادة :

- ما أجمل هذه الساعات ، سأنام قدر ما أستطيع ،
ثم أنهض لأكمل خطوة للأمام خطوتان للخلف .

ثم مط شفته قائلاً :

مع أن كل الخطوات للخلف .

ابتسمت . لوحت بيدى مودعاً . وتركته .

لكننى لما رجعت بعد أربع ساعات لم أجده وحده ، بل كان يلاعبه " عبده " الطاولة .

ولفت نظرى شخص غريب يجلس فى ركن وحيداً شبه مرعوب . ما أن لمحنى " عبده " حتى طرقع بأصابعه وهتف :

-تعال-شوف منصور . .مغلوب دورين لم يحدثا فى التاريخ .

فغر منصور فاهه بدهشة بالغة قائلاً :

- غريبة . . لقد غلبنى دورين بالفعل

ولكن مقابل ثلاثة أدوار لصالحى

زعق عبده مازحاً :

- أدوارك الثلاثة لا تساوى دوراً

واحداً من أدوارى . .

وضعت الكتاب جانباً . وأشرت إلى الغريب :

- لم أتعرف .

حدق الغريب فى وجهى بريبة وقلق ، فيما أشار إبراهيم للغريب قائلاً:

- مصطفى .

لم أفهم

- أهلاً وسهلاً .

هز الغريب رأسه يرد علىّ . له عينان حادتان مريتبان ، نظراته غير مريحة ، متوترة ، شدنى منصور من يدى ، خرجنا للشرفة ، حدثنى طويلاً وأخبرنى أن شخصاً يدعى ؛ محى " يقول أنه صديق زكريا . . زكريا صديقنا ، وأن " محى " هذا أحضر مصطفى ، الشخص الغريب ، وطلب أن ينام عندى الليلة !

نظرت باستنكار لمنصور .

- ينام . . الليلة !

دهش منصور وقال بانسانية مفرطة :

- يبدو أنه مسكين . . لينام الليلة . . هل تخشى شيئاً !

- لا .. ولكن ..

- إذن ينام .. أم أن كلامنا عن الغلابة والمقهورين والمساكين والوقوف بجانبهم مجرد كلام !!

بتردد شديد قلت :

- لا .. فقط ....

- توكل على الله ، وأنا وعبده سنسهر معك .

استسلمت لمنصور وأنا لا أفهم ، لقد أرهقني منصور بطبيعته وتأكيده على أن هذا الغريب مسكين كما هو واضح من ملبسه ومظهره .

تقدمت من الغريب ..

- أهلاً وسهلاً .. ما اسم الكريم ؟

تردد ، وتعلثم ، ثم بحشرجة قال :

- مصطفى ..

- أهلاً وسهلاً .

فنهض عبده راقصاً ، مؤدياً بصوت مرتفع ، أحسستِ فيه بعض السخرية :

يا مصطفى يا مصطفى

أنا بحبك يا مصطفى

سبع سنين فى العطارين

وأنا بحبك يا مصطفى ..

أعرف سر ارتباكى . أنه هذا المجهول . أعرف " محى " عن طريق ، "زكريا " ، شاب بسيط يعمل فى محل كوافير سيدات ، شاب

أنيق وغلبـان أيضاً ، استـرجعت كلام منصـور . . قريب مـحى ! يرجوك الليلة فقط !! سيـقابلك غداً !! لن ينسى الجمـيل !!! أى جميل ، المكان متسع ، والأكل شئ غير ذى بال ، و " عبده " سيعرف فصله وأصله .

بادره فعلاً بسؤال مباغت وقاسى :

- أ أنت هارب !

قال الغريب

- لا . . أنا . . لست هارباً . . سأهرب من ماذا ؟

قال عبده :

- يعنى من أبيك . . من دائن . . من قضية .

قال مصطفى :

- لا لا . . أبداً . .

ضحك عبده قائلاً :

- أتكون مخبراً !

ابتسم مصطفى بتوتر بالغ :

- مخبر !! لا . .

نهضتُ قائلاً :

- نأكل لقمة .

ظللنا نحكى ونثرثر ومصطفى لا يتكلم ولا يعلق . تكلمنا فى السادات والملك فاروق وسعاد حسنى وليلى مراد ، وأدركنا من الكلمات القليلة التى قالها إنه غير متعلم ، وربما يشتغل ترزياً ، ينظر بعينين زائغتين ، لم استرح له . استأذن منصور لينزل قليلاً ويرجع كما قال . غلبنى عبده دور طاولة ،

ورجع إبراهيم بكيسين من الفاكهة وضعهما أمامنا قائلاً :

- من أجل ضيفنا العزيز .

ولم يكف مصطفى عن تدخين السجائر معهما . حاولت عبثا أن يتكلم . وأنتصف الليل . وقال إبراهيم للغريب مصطفى :

- احكى لك حكاية لم تحدث

أومأ موافقاً كطفل مفزوع ، فابتسم إبراهيم قائلاً :

- كان ياما كان . . زمان . . ولد مسكين . .

عاش حياة مسكينة ، وظل طول عمره يبحث

عن صديق لمجرد أن يحكى له همومه . . وذات

ليلة . . مثل هذه الليلة التقى بشخصين فى غابة

واسعة واسعة قدر هذه الحجرة ، ولما

كان الولد خائفاً فقد اتخذ من الشخصين

صديقين . . وعاشوا معاً فى سعادة واخلاص .

ابتسم مصطفى ابتسامة باهتة . فنهض عبده وهو يقول :

- لابد أن أسافر طنطا . . والآن . . مشكلة عائلية . .

انهم ينتظروننى . . كان موعدى الساعة الثامنة .

ولم أستطع أن أثنيه ، كما أن منصور أخبرنا أنه سيمشى أيضاً ، واردف:

- تعرف يا جابر . . سأجد أمى جالسة على السطح

تنتظرنى ، وأبى لابد فى حالة ترقب وتحد .

صرنا وحدنا ، فإنكمش على الكنبة ، يبدو نحيلاً لكن عفى . استبعدت أن يكون رسولاً لقتلى : لماذا ؟ ليس لى اعداء . ولا تار ، ولا مطاردة غرامية، لا سامية ولا توحة ، ولم اقترض فلوساً ، لست مستهدفاً فيما اعتقد . شعره طويل لم يقصه من زمن فبدا كالهيبز . ليس مخبراً بالتأكيد . ملابسه ليست نظيفة ولا يحاول أن يسمعنى . صندله المركون بجوار الكنبة ليس في حالة جيدة . إنه مسكين فعلاً . ترك منصور بعض السجائر لاحتياجات مصطفى . لم أعط أى ملابس لمصطفى فقد هاجمنى هاجس أن يكون أجرب مثلاً . تمددت على السرير وأنا أتكلم :

- كلنا فى حاجة للأمان . . بيت وشجرة . .
هلى جربت أن تزرع شجرة . . لابد أنك
تشتغل . أى شغل ليس عيباً ، لى صاحب
ماسح أحذية أحبه جداً . . و . . أزوره . .
زرته مرة فى بيته ، وهو ضاحبى . . نعم ماسح
أحذية وصاحبى . . . أنت من المحلة . يبدو
أنك لست من المحلة . محى . . محى صاحبى . . .

وفجأة وجدت النعاس يغلبه ، لا يكاد يفتح عينيه من فرط إجهاده ، نهضت ، وضعت وسادة على الكنبة تحت رأسه ومددته ، فتمدد كطفل ، واستسلم لنوم عميق . بينما كنت مشغولاً به ، كان يمكن أ يخدعنى ويحكى لى الأكاذيب ، يخدعنى ببساطة ، لو كان لئيماً . يبدو أنه بكر وطيب . خرجت للشرفة ، ورجعت ، لن أنام ، هذا قرارى . أنا لا أثق فى كل ناس هكذا ، ربما فتح علىّ مطواه و . . غرزها فى رقبتى . فتحتُ

كتاباً ، اغلقته . امسكت قلماً وتركته ، جلست على السرير ، الصمت سحره وهواجسه ، إنه يقهرني بصمته . هل أخاف منه ؟! لا بالطبع ، لكنني اتوجس . أنا أخشى من لا اعرفهم . لا أدرى كيف سيتصرف ؟ لكنني متيقظ قليل من الوقت وترفع ستارة الليل ويجيئ النهار الأرزق الشفيف ، وحين يستيقظ أحضر الفطور ونفطر معاً ونشرب الشاى ، وربما يمشى أو يجيئ " محى " .....

لا أعرف كيف غافلنى النوم وأوقعنى فى سلطانه . نعم هاهو ضوء النهار اللامع الدافئ . متى نمت إذن ؟ و . . . : مصطفى !! ألقيت نظرة سريعة على الكنبة لم أجده ، ولا الصندل ! نهضت بسرعة . لما كل هذا الفزع ؟ لابد أن المسكين يجلس فى الشرفة منذ الصباح الباكر منتظراً أن أصحو . لم أجده فى الشرفة . قلقت ، فتحت باب الحجرة ، مصطفى ليس على السطح !!دخلت الحجرة مرة ثانية ، يقين بعيد مقبل علىّ ، القيت نظرة على التربيزة ، لم أجد الحافظة بنقودها ، وخلف الباب لم أجد بنطلونى ، البنطلون البنى وكان به جنيهات ، والقميص غير موجود . ما هذا حرامى ! أعدت جرد الحجرة ، فوجدته قد استولى أيضاً على بنطلون چينز والحذاء والجورب والشبشب ومشط الشعر وفرشاة الشعر ، والساعة ، وتمثال نفرتيتى ، ولم يأخذ أى كتاب . الحرامى ابن الكلب . لماذا سرقنى ؟ جلست محترقاً فى غيظى ، ثم تذكرت منصور وحكاياته التى لم تحدث ، فابتسمت، ثم أخذت فى الضحك .

- ١٥ -

كيف أمكنهم انقاذى فى اللحظة الأخيرة ؟

كنا فى إجازة صيفية حين نزل أحـمد فى إجازة من القوات المسلحة لمدة ٧٢ ساعة . كنت فى توق لرؤيته ، فأخـبرت إبراهيم ورفاعى وعاطف ولم نتـردد . والتقـينا عند محطة الأتوبـيس التى لم تخل من ازدحام ، القـرية قريبة - حـيث يقيم أحمد مـع أسرته الصغيـرة وعائلته الكبيـرة - غير أن الأتوبيس بكل ما يحـمله من جنود وفلاحين وطشوت ونسـوة جعل التنقل شاقاً، بالكاد وجـدت مكاناً لقدمى بجوار الباب ، كـدت أقع أمسك بيدى فلاح له يد قـوية خشنة وظللت ممسكاً بهـا حتى وصلنا . فيـما استـقبلتنا القرية بنسمات رائعة واتساع بديع ففرحت وتقافزت كطفل وقلت لهم أتمنى الآن أن أجرى وألعب كـرة واستغـماية بل واتمرغ فى هذا الفـضاء الرائع ، وأخذت ألف وأدور مثل نحلة ، فكانت السمـاء بزرقتها تدور معى ورؤس الشجـر والنخيل تلف مـعى وطائر يدور ويدور ويلف معى حـتى سقط ؛ فالتفوا حولى وشدنى إبراهيم من الأرض وهو يقهقه قائلاً :

- تحلم بما لا تقدر عليه .

تماسكت من الدوار وضـحكت عاليـاً بينما بعض البـيوت تهـتز تميل ، فـامسـكت بكتف عـاطف لاعناً الأحلام الـدوارة وقال لى بيت شـعـر لم استوعبه .

أحمد . . ممدد على حصير فى حوض واسع على رجليه بقعة شمس ، ويجانب رأسه بعض الكتب ، ذراعه على رأسه ذى الشعر الخشن والعصافير تحط وتقوم برفة خفيفة وثمة هواء منعش ، وخلف رأسه كوب شاى فارغ . هذا ما كان عليه أحمد حين رأيناه ممداً فى جلبابه فوق الحصير، فأمسكنا عن الكلام سعادة برؤيته.

همس رفاعى :

- علمه الجيش أن ينام على الأرض وهو

الذى كان يخشى الصرصور .

أشرت لهم بالصمت حتى لانزعج الجندى الصغير ، ثم قلت لنفسى بل هو طفل عجوز . ثم هامساً وكالفحيح ناديت ، كأن الصوت قادم من بئر عميق :

- أحماااااد . . أحماااااد

نهض تواً ، وصرخ فرحاً ، وقفز قفزاً ، ولمنا فى حضنه . وقدم لنا الدجاج المحمر واللحم المحمر والأرز المعمر والخبز الساخن والطماطم والفلفل والخيار والشاى . فكان أن تمددت على الحصير ورحت فى نوم عميق بعد أن لفنى الهواء المنعش فى ثوب النوم الحرير .

قالوا أنى نمت ساعة كاملة ، وأنهم خلالها دخنوا السجائر وشربوا القهوة وتكلموا فى السياسة وسمعوا الشعر وجاء بعض الأقارب ورحبوا بهم ، وأن ربيع صديقنا وابن القرية جلس معهم وحكى بعض ذكرياته عندما كان يأخذه سلطان النوم فى أسره ، وحكى لهم عن مشاركته فى حرب اليمن وقال لأحمد أن الحرب التى سيدخلها أملاً فى خط بارليف أقل

مشقة من جبال اليمن وخناجرها ، وأوصى ألا يوقظنى أحد لأن هذه أفضل ساعة نوم سأقتنصها فى حياتى ، ومضى بعد أن سخر منهم الواحد تلو الآخر على قصائد لم تعجبه ألقاها عاطف ورفاعى . وقالوا أن أحمد ضاكحه قائلاً : على أى حال أنت لست جمهورنا .

وضحكوا مرة أخرى ، وشربوا القهوة مرة أخرى ، وأعادوا إننى نمت ساعة كاملة . هرشت رأسى ، وسألت بجدية وهم حقيقى :

– ما هى أخبار الجيش يا أحمد ؟

السنوات تمر بطيئة وثقيلة ، احساس الهزيمة قاسى ، واللون الأزرق قاسى . ووجود سيناء محتلة على خريطة الوطن قاسية ، وكل شباب مصر تقريباً يرتدى البدلة العسكرية . البدلة العسكرية تملأ الشوارع والقطارات والأتوبيسات والحارات . ومتابعة أخبار جيشنا كان شغلنا الشاغل . سنحارب . متى إذن ؟

تجمد وجه أحمد وطفر عليه القلق ثم تمتم كأنه يحلم :

– سنحارب ..... طبعاً .

ثم تمكن منه الحماس وقال :

– ما أراه فى الجبهة ليس خطة لخدعة الناس ، نحن ... أقوياء.

وأنا أدرك من عيون الجنود الذين أقابلهم إنهم لا يلهون ؛ فالأيدى أصبحت أكثر خشونة والوجوه أكثر سمره والصمت أكثر من الثرثرة ، والترقب ملمح فى الوجوه ، وتلاشت ملامح الانكسار .

حدثنى عطية ابن خالتى عن تدريبات قاسية يقومون بها بأماكن نائية فى جنوب مصر ، وكان يخمن مندهشاً وهو يقول لى : سنحارب حرباً بحرية!

استغربت قوله فأردف : تدريبتنا كلها فى المياه !

هى القناة . . وتذكرت كلمات الشاعر " كمال عبد الحليم " : دع قناتى . . فمياهى مغرقة .

تكلم أحمد عن حرب قادمة يشم رائحة بارودها . ولكن متى ؟ لقد مللنا السنوات ، بل وكرهنا السنوات الست منذ هزيمة ٦٧ والتى أوشكت أن تمر .

خرجنا من عتبة البيت الكبير ، وبدأنا فى تبادل التحيات والابتسامات العريضة مع شبان ورجال لا نعرفهم . ثم قال أحمد ضاحكاً :

- هيا إلى الميدان .

الميدان هو الوسعاية المكتظة بالعيال يلعبون الكرة . والتراب خانق والأصوات عالية . وعلى مقهى واسع يطل على الوسعاية والعيال جلسنا نشرب الشاى ، فالتفت حولنا الشبان يرحبون ، ويصرون على مزيد من القهوة والشاى ولعب " الدمينو " ، كانوا تحت سن التجنيد أو تجاوزوا الخمسين من أعمارهم ، تأملت وجوههم من سيلحق بالتجنيد منهم ومن سيستشهد ! .

اقترب عجوز منى وقال فجأة :

- الأستاذ . . اسمه حسن ؟

فابتسمت ونفيت . قال أحمد ضاحكاً :

- هذا الأستاذ جابر يا عم عمران .. صديقى من

المحلة الكبيرة .

حدق فيّ العجوز طويلاً وقال :

- لا .. هذا حسن .

ابتسمت وقلت :

- فعلاً يا عم عمران .. أنا حسن .. أى خدمة !

جر عم عمران الكرسى القش وقال بفرح وحماس :

- تعجبنى .. هات الطاولة .. لابد أن الاعبك

عشرة طاولة .. أخذ بثأرى .

حاول أحمد أن يحول بيننا عبثاً :

- لا يلعب الطاولة .. إنه فنان .

جر عم عمران الترابيزة أمامنا ، وهو يقول ساخراً :

- فنان !! عبد الوهاب يا خى .. سألاعبه طاولة .

واضح أنهم يعرفونه ، تحلقوا حولنا بعيون ضاحكة ، فأصررت أن ألاعبه وأن أحقق له هذه الأمنية التافهة وقلت سنضحك قليلاً على أى حال. مال إبراهيم إليه قائلاً :

- أتلاعبنى شطرنج

زغر له عم عمران بعينين قاسيتين ، ثم صرخ فى وجهه :

- لا ألاعبك حتى سيجه .

ونادى على صبى المقهى بعزم ما يملك :

- هات الطاولة يا شعبان .

وبدأنا في اللعب . يده اليمنى ترتعش قليلاً وبها يرمى النرد ، من أول رميــة نرد أدركت أنه يجيد لعب الطاولة فـعلاً ، وانهزمت بجدارة ، فـقام ووقف رافعاً يديه لأعلى ، وقال بارتياح :

- خلاص. . . أخذت بثأرى .

وخرج حتى عتبة المقهى ثم التفت لشعبان صائحاً :

- طلبات حسن بيه على حسابى .

نهض رفاعى بحركة مسرحية صارخاً :

- لا . . لم يعد لنا جلوس فى المقهى . . هيـا إلى الحقول .

فنهضنا . بديـعة الشمس المشـمشيـة اللون ، وللأشجار رونقـها ، إنه أصيل بـيرم التونـسى ، فانفتـح صدرى للفـرح . وقفزت مع رفـاعى إلى شجرة توت لم تثمر بعد ، وقفت بينهم خطيباً هاتفاً :

- احتفالاً بإجازة جندى مجند " أحمد " وما سمعناه من
أخبار طيبة عن جيشنا ، سوف أسعدكم الليلة وسأقرأ
عليكم أحدث قصة قصيرة كتبتها . . على شرط واحد :
لا ينقدها أحد حتى تمر الليلة على خير .

صفقوا بابتهاج وهتف أحمد :

- اليوم حرام فيه النقد .

ثم اعتلى كـوم سباخ عال والقى إحـدى قصائدة . كانت بحق إنســانية وعذبة فقلت له :

- أحمد . . اسمح لى .

ثم رميت بنفسى من فـوق الشجرة ، وقعت أرضاً ببـعض ألم . التفوا حولى ضاحكين مندهشين فرفعت رأسى قليلاً قائلاً :

- هدية متواضعة إلى " أحمد الزعتر "

مشيراً لقصيدة محمود درويش . قهقه رفاعى قائلاً :

- هذه لعنة عم عمران المقدسة .

ثم اختـرقنا الغيطان لنصل مـن اتجاه آخر إلى حـقول اليـاسمين ، التى طغت رائحتها النفاذة وغلفت المشهد بخصوصية شديدة . من بعيد مر قطار سريـع فقطع السكون وتخـيلت أنه أزاح رائحة اليـاسمين للحظـات ، كان يمرق مثل دودة ضخمـة وسط خضرة مهيبة ، وقلت لهـم يوم بهيج ينقصه فريد ومحمد ومنصور .

للغروب جـماله ، لكنه صاحب العـمر القصـير سرعـان ما أدخلنا فى الليل، ولحظنا الحسن كان البدر بدراً فى السـماء ؛ فأباح لنا الغيطان وفرش سكتنا بنور وأشاع بيننا الرومانسية تلقائياً فحدثنا رفاعى عن محبوبته التى لا تبادله الحب كما يريد لكنه تغزل فى عينيها كالشعراء طويلاً . وحكى أحمد عن الجيش والرمال ذات الألوان والمدفع والدبابة والطائرة بغزل وعشق . لم أنبس فجأة دخلت فى عالمى ، فى بيات لحظى ، كان يزاحمنى شيئان وجه سامية ونهـد توحة . تشدنى توحة أكثر ؛ فأحلم بهـا معى الآن فترتمى فى ظلمة الليل البـهيم ، تسبح فى الظلمـة ومن بطنها تصنع قبة تلعب علـيها النجوم ، ثم نسقط معـاً ويتكسر تحتنا كل الحطب ويبتل القش . آه . . أين أنت يا توحة الآن ؟ . وجـرح صوته العالى عـالمى ، إبراهيم ، تكلم عن الحركة الطلابية التى ضجت من عام الرخـاء وعام الضباب وعام الديمقراطية ذات الأنياب ، وأخـلاق القرية . فيـما بادر عاطف بمهـاجمة أبيـه بضراوة

وقال واجزم انه مر من ورق . ثم تكلم بقلق عن مستقبل الاشتراكية . وكنا نلمح فى الأفق تغيرات عديدة حتى على أنفسنا نحن وتصورنا لتجاوز الفن لمراحل كلاسيكية عديدة خاصة بارتباطها الفكرى . شردت قليلاً ومضغت فى شفتى السفلى بسبب توحة والاشتراكية .

على عتبة البيت الكبير استقبلتنا أم أحمد عاتبة علينا تأخرنا كثيراً عن تناول العشاء . فى الحجرة الكبيرة أيضاً فى بيت أحمد طوحت بحذائى وجوربى وهتفت :

- الأكل الأكل . . ثم القصص القصص

كان العشاء متنوعاً ما بين الطبيخ واللبن والقشدة والجبن والعسل والخيار والطماطم ، وفضلت أن آكل الجبن والقشدة . ما أن فرغنا حتى جاء " ربيع " ونقر على الشباك نقرات خفيفة ، وبعينين ضيقتين حادتين حدق فى وجوهنا ثم قال :

- أيعقل هذا ؟ تأتون لتحبسون أنفسكم فى بيت أحمد ؟

وخرجنا ومضينا مع " ربيع " الذى استهدف مقهى محدداً يفضله . كانت المقهى مبنية بعيدان الأذرة والحطب وعروق خشبية وبغدادلى . حوله جلسنا وإليه شد تربيزة . سرعان ما وضع القهوجى العجوز " حجارة الجوزة " بجمرات نارها . امسك ربيع بالجوزة ثم سحب نفساً عميقاً ومن جيبه أخرج قطعة حشيش صغيرة أصغر من عقلة الأصبع وأخذ يتفنن فى دعكها وتكوريها قطعاً صغيرة صغيرة ، ثم دخنوا باستمتاع بالغ . بص لى ربيع بأسف على حالى لأننى لا أدخن ولا أسكر . وضرب كفاً بكف متسائلاً : كيف تكتب أذن ؟ تذكرت " رحاب " ذات السؤال . لكنه لم يسكت :

- كيف تحرم نفسك يا بنى من تلك الخيالات التى

تعطى للفن مسحة سيريالية وشطط جميلاً ؟

ابتسمت ، قلت :

- أنا سعيد بسعادتكم فلا تقلق يا ربيع .

ومروا سريعاً على أخبار الجيش والسادات والنكات السياسية والجنسية. وعندما تلاشى المكان فى الدخان ذى الرائحة المميزة للحشيش ، ومضى الزبائن وبدأ الكلام ينفلت وبلا اهتمام ضرب ربيع الترابيزة الصغيرة بقدمه فانقلبت أرضاً ، وأزاحوا الكراسى القش . وخرجنا . بادلنى القهوجى العجوز ابتسامة وانحناءة البراح استقبلنا مرة أخرى ، ولا أعرف من أى جهة جاءت تلك النسمات الباردة التى بدت منعشة ثم اقشعر لها جسمى ، وبدأت آلام غريبة مثل مغص يداهمنى ، طلبت أن نرجع لبيت أحمد ، فتركنا " ربيع " بدون استئذان وهو يدندن :

فى الليل لما خلى

ما أن دخلنا حجرة أحمد حتى انتابنى شعور شديد بالقيئ ، فطلبت الحمام ودخلته ، المكان الوحيد المظلم فى بيت أحمد ، ظننته واسعاً جداً وأننى سأتوه فيه وتصورت به حفرة عمقية عميقة . شعرت بسخونة وعرق وألم فى معدتى ، وتقيأت بصعوبة بالغة . ورجعت . طبطب علىّ رفاعى:

- ستطيب الآن .

ودهش إبراهيم ، بحزن سأل :

- ماذا أكلت حتى تتقيئ ؟!

أخذنى أحمد تحت ذراعه ، قبلنى فى وجهى وهو يقول :

- جابر مرهف . .

جريت من تحت ذراعه إلى الحمام ، تقيأت بتدفق . سندت رأسى للحائط ، ثم جلست فى مكانى القرفصاء لأننى لم أقو على الوقوف أو حتى السير إليهم .

نهضوا بقلق أحسسته ، حملونى إلى السرير ، وبينما أحمد يقول لى :

- سأسوى لك نعناعاً

حتى كنت أجرى تجاه الحمام ، خلعت ملابسى التحتية وقبل أن أجلس القرفصاء كان الأسهال شديداً غزيراً . خلت أننى سأموت حالاً فناديت بوهن :

- أحمد . .

فهرع الجميع إلىّ . حملنى إبراهيم ورفع رفاعى ملابسى ، وعاطف أمسك رأسى وكنت ممتناً لذلك خشيت أن تسقط رأسى منى فى الحفرة العميقة التى نبول ونتبرز فيها . تخلف أحمد فى الحمام قليلاً . اقترح رفاعى أن أنام والتحف بالغطاء . خلعوا عنى جوربى . مددونى على السرير ، ولكن هاجمتنى رغبة القيئ ، حاولت النهوض تقيأت على السرير وبجواره وفى منتصف الحجرة . ولم يعد من الممكن السيطرة على نفسى . وصنعوا وسط الحجرة طشتاً لاستعمله فى التقيؤ والاسهال ، وكان إبراهيم يحملنى لا تقيئ ثم يعدلنى لأسهل ، ثم يرفع ملابسى ويحملنى كطفل على صدره ، وكنت أظننى غير قادر على مجرد التنفس . وصلنى صرخة رفاعى وكان يظن أنه يهمس لهم :

- جابر سيموت . . لابد أن نتصرف .

جرى أحمد لدوار العمدة بالأسعاف - هذا ما عرفته فيما بعد - رفض الاسعاف الحضور لأن الشبورة فى الخارج لا تسمح بالمسير . زعق إبراهيم:

- مستشفى الحميات على بعد كيلو مترات

سأحمله إليها . . هيا يا رفاعى .

سمعت أصواتاً وجلبة وصورة مغبشة لازدحام . زعقت أم أحمد بعد أن لطمت وجهها :

- هات الحمار يا سعيد .

ولفونى فى اللحاف ووضعونى على ظهر الحمار ، وخلف كان سعيد بحب وفزع يحتضنى ويحافظ على توازنى ، سقطت رأسى على صدره ، كنت اسمعه يهمس مرعوباً :

- لا تخف . لا تخف يا سى جابر .

فيما تساءل الخارجون من الزاوية بعد صلاة الفجر . طمأنهم أحمد ، وأخذوا طريقهم . تقدم إبراهيم حاملاً " كلوب " صغير مضاء لينير الطريق، ومشى أحمد موازياً لى ساندأ بيده ضعفى ، فيما مشى عاطف ورفاعى خلف الحمار - هكذا حكوا لى - لم ينبس أحمد بكلمة ، كان سعيد يسعل بين حين وآخر ويضمنى بشدة ، ظن عدة مرات أننى اسلمت الروح وهمس لأحمد بذلك ، فقرأ أحمد سوراً من القرآن ، ولم يتوقف الركب إلا أمام جسر السكة الحديد حين مرق قطار كان يخبط الأرض بشدة، ارتجفت وظننت أن قلبى هو الذى يخبط فى صدرى . اختفى القطار وسحب معه كل جلبته، فعبروا الجسر . من الناحية الأخرى أقبلت فتيات فلاحات تتجه صوب حقل الياسمين وهن يصفقن ويغنين بأصوات شجية ، توقفن تماماً حين مررنا بجوارهن . شهقت بنت بألم هاتفة :

- يا عينى يا حبيبى .

سمـعتهـا تبكى وتنهنه سمعـتها من بعـيد من العـالم السفلى الذى لا أعرفه، وميزت صوت الوحيدة الباكية .

- يا حبيبى . .

ورأيت الدموع تنهمر تغرقنى ، تبلل شفتى ، تنحدر للغيطان ، سمعت هدير المياه ، وضربات تقافز الضفادع التى أثارت فىّ روح الطفولة فحاولت أن أرمى نفس إليها اتقافز وراءها امسكها بين يدى فيقشعر بدنى من ملمسها ، حاولت أن أرمى اللحاف من فوقى وأصرخ فى سـعيد انزلنى يا سعيد . لكننى لم استطع .

يبدو أننا عـبرنا قضبان الـسكة الحديد ، لا أعرف كيف خـبرت ضرب حـوافر الحـمار بالزلط ، عـبرنا بالفـعل ، تناهى إلى صـوت البنات وهن يغنين، ائتنـست بهن ، زعق إبراهيم يحـذر من السـيـارات القـادمـة ومن الشبورة ومن سعيد الذى تصور أنه لا يشدنى إليه جيداً ، وظل يزعق منبهاً ومحـذراً وموجـهاً حـتى تلاشى كل شئ بالنسبـة لى ، غرقت فـى عرقى وكـأننى رحت فى سابـع نومة وانزلقت بنـعومـة للسكون كـأننى فى المنام أغوص فى حرير وحرير دافى مثل وجه أمى . . أمى . . أمى .

- ١٦ -

ليس بالضرورة الأزرق ...

بفرح ولهفة جريت إلى حجرتى ، فتحت الباب ، تركته مفتوحاً ، خلفى دخلت الديوك والأرانب والدجاج والبط والأوز ضربوا باجنحتهم فتطاير خفيف الريش ، وصاحوا فتداخلت أصواتهم وصنعوا لغطاً جميلاً . أمسكت بقطعة من قماش مبلول ورحت بحماس أنظف زجاج النافذة من لونها الأزرق ، أنظف ، بغيظ أدعك ، بقوة أطيح به . كرهتك أيها الأزرق ، يا مانع الشمس والرؤى . كرهتك يا خوفنا وانتظارنا ست سنوات كاملة . سأفتح النافذة على السماء لتدخل شمس اكتوبر الهادئة .

ومن الزجاج أرى السماء ، واسأل السحب الراجعة من سيناء ألم تر جلال ابن عمتى . . ألم يعبر جلال من ضفة لضفة . وسأرجو السحب أن تحمل وساماً لابن خالتى عطية الذى مازال هناك يتمتع برمل سيناء والعلم الذى رفعه محمد أفندى . وللطائرات الوح وأسألها السلام ، وللعصافير أنادى : تعالى تعالى . . تعالى أيتها العصافير حطى فى حجرتى ، وعلى كتفى ، وعلى جبينى .

إذهب بلا رجعة أيها الأزرق . إذهب .وتحول تنظيفى للزجاج من لونه الأزرق إلى حمى ورغبة للإطاحة حتى بلوح الزجاج .

إلى الجحيم أيها الأزرق المعتم .

ابتعدت قليلاً أتأمل المشهد . رأيت الزجاج لامعاً ونظيفاً وفجأة مرق

عليه من الخارج : برص " ثم توقف لحظة ثم مرق بسرعة خاطفة لكنه كان مقززاً ، خيل لى أنه يرمقنى ويخرج لسانه ، مـقززاً لأقصى درجة ، قاسياً فى بشاعته . مقرفاً .

ارتددت إلى الكـنبـة ، جلست أتـطلع وروحى تسـوخ لـلوح زجـاج النافذة.

قالوا لن نحتاج للأزرق القاتم .

أم أنه وهم !

وهم . . !!

فهـاهو البرص نذير بالحقـارة والانحطاط والشؤم ، اقـشعر بدنى فـقد كانت الطيور تنقر فى قـدمى وجوربى وبنطلونى ، وتنتش وتمزق . وعنياى معلقتان بزجاج النافذة أرقب وانتظر .

" المحلة الكبرى "

١٩٩٨

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

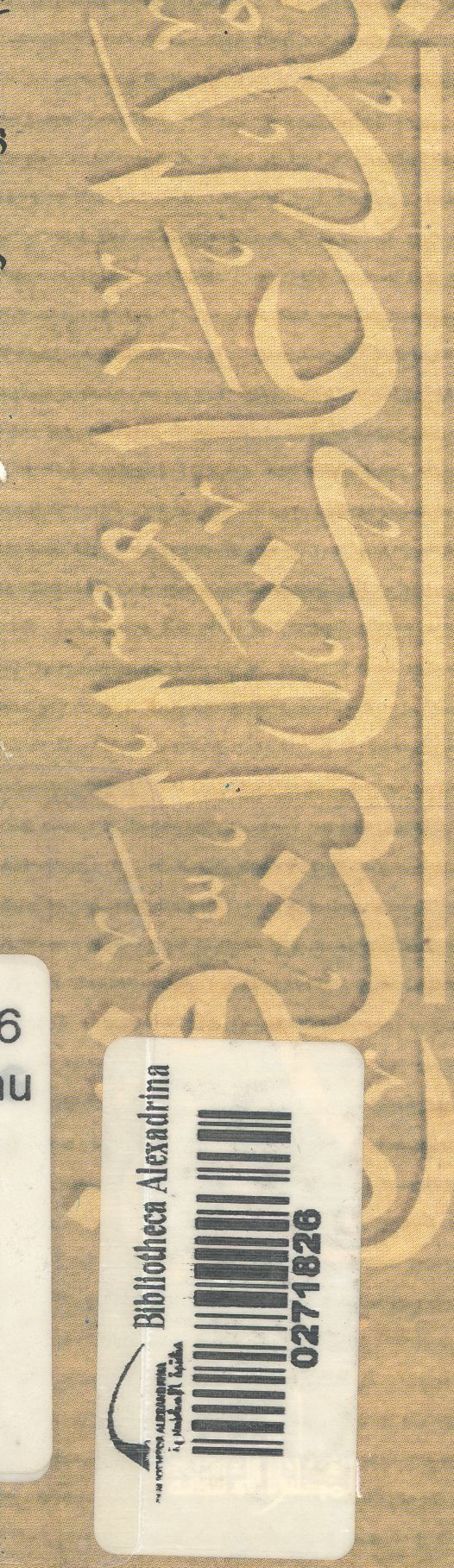
رقم الإيداع ١٠٨١٧ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 144 - 7)





◆ 01 ◆



حجرة فوق سطح

ثلاثة عقود من الزمان شاهدوا نضال جار النبى الحلو فى الكتابة بدأب وإصرار بالغين ، حرص جار طوال تلك الفترة على أن يكتب وينشر- وإن كان بعيداً عن الأضواء والمقاهى- يعيشها فى بلده ، يعيشها ويستلهمها ويتواصل مع أهلها ؛ فيمدوه بهذا الكم الذاخر من القصص والحكايات .. وبما هو أهم ، تلك المشاعر الرقيقة والدفء الحميم .

لو كان لنا أن نبرز خاصية أساسية فى كتابة جار النبى الحلو - وشخصيته - فإننا نركز على خاصيته الحميمية . جار شخص حميم الصلة بالبشر وشديد التعاطف معهم ، مع همومهم الصغيرة الدفينة ، وهنا لا أجد انفصالاً بين كتابته وشخصه ، الذى أستطيع أن أتخيله وأستشف ما وراءه أكثر مما أنا عليم به وعارف.كتابة جار- وهذه المصابرة الدؤوبة- لا يمكن أن تفهم إلا إذا اعتبرت وسيلته الكبيرة لتحقيق الحميمية والتواصل مع البشر.

د . سيد البحراوى